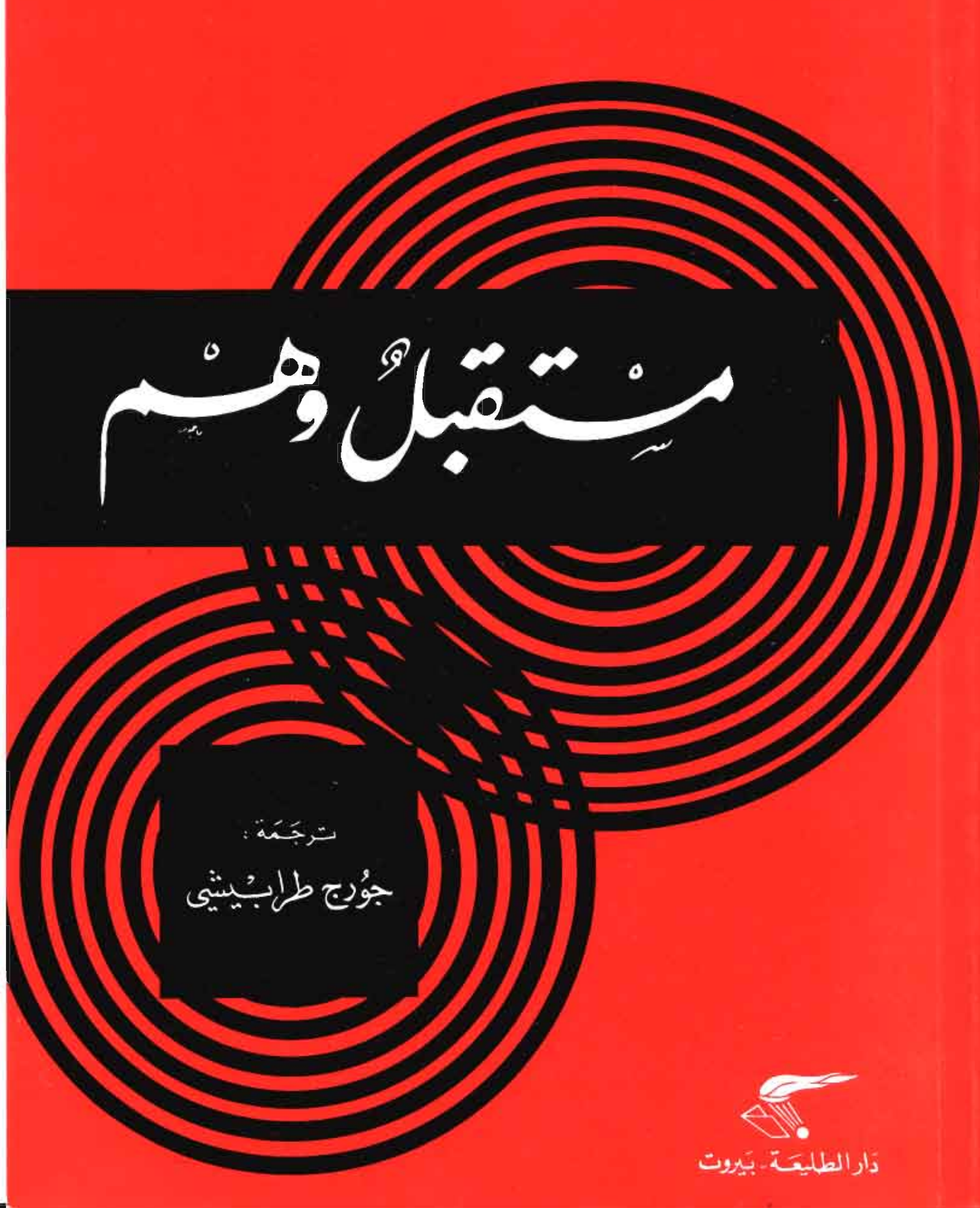
سيغموند فرويد



مستقبل وهم

ترجمة :

جورج طرابيشي

دار الطليعة - بيروت

مُستقبل وهم

□ «ليس ثمة سلطة تعلو فوق سلطة العقل، ولا حجّة تسمو على حجته».

□ هذه هي نقطة انطلاق فرويد الجذرية في التصدي لمشكلة الدين وعلاقته بالحضارة ومستقبله على ضوء المستتبعات الفلسفية لنظرية التحليل النفسي. وليس من قبيل الصدفة أن يكون **مستقبل وهم** ـ مثله مثل **قلق في الحضارة**، **وموسى والتوحيد** ـ قد ظلّ حتى اليوم بلا ترجمة. فمهما تكن مؤلّفات فرويد الأخرى جريئة وخطرة على الايديولوجيا السائدة، فمن الممكن احتواؤها وامتصاصها بحجة أنها علمية. أمّا مؤلّفاته الفلسفية فخطرها غير قابل للاحتواء، ولهذا بقي الوجه الجذري والعلماني ـ لا العلمي فحسب ـ لفرويد مجهولاً لدى القرّاء عندنا، كما في كل مكان آخر من العالم.

دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ١٩٧٤
الطبعة الثانية: كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩
الطبعة الثالثة: حزيران (يونيو) ١٩٨١
الطبعة الرابعة: آذار (مارس) ١٩٩٨

سيغموند فرويد

مستقبل وهم

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

L'Avenir d'Une Illusion
Sigmund Freud
Presses Universitaires De France
1973

تقـــديم

آخر ثلاثة كتب كتبها فرويد قبل ان يقضي نحبه ، وهـــي **«مستقبل وهم»** (١٩٢٧) و**«قلق في الحضارة»** (١٩٢٩) و**«موسى والتوحيد»** (١٩٣٩) ، ظلت اسيرة الظل لا تجد في اوساط الفكر الاكاديمي والجامعي العربي من يجرؤ على الاقدام على ترجمتهـــا ونشرها ، بالرغم من ان سائر مؤلفات فرويد وجدت طريقها الى المكتبة العربية في وقت مبكر نسبيا . وليس عسيرا ان ندرك سر ذلك الإحجام اذا ادركنا ان الكتب الثلاثة المشار اليها اتخذت من الدين وصلته بالحضارة ومصائره في المستقبل موضوعـــا مركزيا لها ، واذا اخذنا ايضا بعين الاعتبار ان منطلق فرويد في تناوله لمشكلة الدين كان المبدأ العقلاني الكبير التالي : «ليس ثمة سلطة تعلو فوق سلطة العقل ، ولا حجة تسمو على حجته» .

والحق ان نظرية التحليل النفسي بمجملها قوبلت في البداية، لاقتحامها عالم الجنس المحرم، بعداء شديد آناً، وبتحفظ وتشكيك آناً آخر، من قبل «كلاب حراسة» الايديولوجيا الرجعية والمحافظة في اوروبا اولا ، ثم في العالم . ولكن نجاح التحليل النفسي في

ان يفرض نفسه كعلم أوجد الضرورة وأتاح المجال في آن واحد لاحتواء الفرويدية ولجمها ، ومن ثم دمجها في جسم الايديولوجيا السائدة . ومما ساعد في النجاح النسبي لعملية الاقلمة او تقليم الاظافر هذه الموقف السلبي او المتحفظ الذي وقفه الفكر اليساري بوجه عام من المساهمة الفرويدية .

لكن مصائر «مستقبل وهم» و«قلق في الحضارة» و«موسى والتوحيد» كانت مختلفة . فقد لبثت هذه المؤلفات الثلاثة مهملة، منفية ، شبه مجهولة لدى المولعين بالكتابات التحليلية النفسية ، ومفصولة ــ كطفيلي مقيت ــ عن جسم النظرية الفرويدية .

وهكذا امكن ، بعد تدجين الفرويدية من وجهة النظر العلمية، ان يبقى الوجه الجذري والعلماني لفرويد مجهولا او محجوبا وراء ستار .

ولعل فرويد نفسه ليس بريئا من كل مسؤولية عن حكم النفي او التجاهل الذي صدر بحق آخر مؤلفات حياته . فقد أقدم هو نفسه على كتابتها متهيبا ، متحفظا ، فجاء عرضه للامور كثير التعاريج والتضاريس في محاولة منه لعدم استفزاز المشاعر . ولكن من حق فرويد علينا ان نضيف انه ما كان يخشى على نفسه بقدر ما كان يخشى على قضية التحليل النفسي بوصفه علما وليدا ليس له من صلابة العود ما يؤهله لمواجهة التحديات الكبيرة . وقد اعرب فرويد في «مستقبل وهم» بالذات عن مخاوفه الشديدة من ان يتأذى مستقبل التحليل النفسي بشظايا معركة الدين او رذاذها . ثم كرر الاعراب عن نفس المخاوف في آخر سني حياته، وهو يكتب مقدمة القسم الاخير من «موسى والتوحيد» .

ومهما يكن من امر ، فان كثرة التعاريج في كتابات فرويد من الدين تقتضي من قارئه تأنيا ، فلا يضيق ذرعا بما قد يلاحظه فيها من تكرار ، او حتى من لف ودوران .

١ – ٦ – ١٩٧٤   ج.ط

- ١ -

حين يكون المرء قد عاش طويلا في جو ثقافة بعينها ، وحين يكون قد بذل قصارى جهده في احيان كثيرة ليكتشف أصولها وطرق تطورها ، لا بد ان يحس ذات يوم باغراء يدعوه الى ان يدير ناظريه في الاتجاه المعاكس ويتساءل بينه وبين نفسه عما سيكونه المصير اللاحق لهذه الثقافة والتحولات التي لا مفر من ان تنتابها. لكنه سرعان ما يكتشف ان ثمة عوامل عدة تنتقص من قيمة مثل هذا البحث ، وفي طليعة هذه العوامل قلة عدد الاشخاص الذين تتوفر فيهم رؤية شمولية للنشاط الانساني في شتى مجالاته . فمعظم الناس وجدوا أنفسهم مكرهين على الاكتفاء بواحد من تلك المجالات او بحفنة ضئيلة منها ؛ وكلما كانت معلوماتنا عن الماضي والحاضر أقل ، داخل حكمنا على المستقبل المزيد من الريب والشكوك .

اضف الى ذلك ان الميول والاستعدادات الذاتية لكل فرد تلعب دورا يصعب تقييمه عندما يكون القصد تكوين مثل ذلك الحكم . والحال أن هذه الميول والاستعدادات الذاتية رهن بعوامل شخصية محضة : بتجربة المرء الخاصة ، وبموقفه المتفائل بقدر

او بآخر من الحياة ، وهو موقف يمليه عليه مزاجه ونجاحه او اخفاقه السابق . واخيرا ، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الواقعة الهامة التالية : وهي ان الناس يعيشون الحاضر عادة على نحو ساذج اذا جاز التعبير ويعجزون عن تقييم ما يحمله اليهم؛ فالحاضر لا معدى له عن ان يكتسب بعض التراجع ، اي ان يصبح ماضيا ، حتى يمكنه أن يقدم بعض نقاط ارتكاز ليُبنى عليها حكم بصدد المستقبل .

ومن يستسلم لاغراء ابداء راي بصدد مستقبل ثقافتنا المحتمل ، يخلق به ان يتذكر المصاعب التي اشرنا اليها أعلاه ، وأن يأخذ بعين الاعتبار كذلك الشك الذي لا بد ان يحيط بكل تنبؤ . وينجم عن ذلك بالنسبة الي انني سأعود بلا تأخير ، بعد التهرب بالسرعة الممكنة من تلك المهمة الضخمة اكثر مما ينبغي ، الى المجال الصغير الذي كنت قد ركزت عليه حتى يومنا هذا انتباهي ، وهذا بمجرد أن أنتهي من تحديد موقعه بالنسبة الى الكل الواسع .

ان الثقافة الانسانية ــ واقصد بها كل ما أمكن للحياة البشرية أن ترتفع عن طريقه فوق الشروط الحيوانية وان تتميز به عن حياة البهائم، وانا ازدري اصلا كل تفريق للحضارةعن «الثقافة» ــ تتبدى للملاحظ بوجهين اثنين كما هو معروف. فهي تضم من جهة اولى كل المعرفة وكل المقدرة اللتين اكتسبهما بنو الانسان ليسيطروا على قوى الطبيعة ولينتزعوا منها الخيرات القمينة بتلبية الحاجات الانسانية ، وتنطوي من الجهة الثانية على جميع الاستعدادات الضرورية لتنظيم علاقات البشر فيما بينهم ، وبوجه خاص لتوزيع الخيرات المتاحة . وليست وجهتا الحضارة هاتان بمستقلتين احداهما عن الاخرى ؛ في المقام الاول لان علاقات البشر المتبادلة تتأثر عميق التأثر بمدى ما تتيحه الثروات الحاضرة من تلبية للغرائز ؛ وفي المقام الثاني لان الفرد بالذات يستطيع ان يدخل في علاقة ملكية مع فرد آخر ، وذلك بمقدار ما يستخدم هذا الاخير قدرته على العمل أو يتخذ منه موضوعا جنسيا ؛ وفي

المقام الثالث لان كل فرد هو بالقوة والفرض عدو للحضارة التي هي في الاساس لصالح البشرية قاطبة بوجه عام . وانه لمما يبعث على الاستغراب ان بني الانسان ، الذين لا يحسنون بالمرة الحياة في عزلة وعلى انفراد ، يشعرون مع ذلك بوطأة اضطهاد ثقيلة بحكم التضحيات التي تنتظرها الحضارة منهم حتى تجعل حياتهم المشتركة ممكنة . هكذا تنطرح ضرورة حماية الحضارة من الفرد ، وفي خدمة هذه المهمة تعمل تنظيماتها ومؤسساتها وشرائعها التي ليس غرضها الاوحد تحقيق توزيع معين للخيرات ، وانما ايضا الحفاظ عليه وتثبيته ، والتي يتوجب عليها بالتالي أن تحمي من نزوات البشر العدائية كل ما يفيد في السيطرة على الطبيعة وفي انتاج الخيرات . فما يبدعه الانسان يسهل تدميره، والعلم والتقنية اللذان يشيد عليهما ابداعه يمكن أن يستخدما ايضا في تقويضه وتخريبه .

هكذا يخالجنا انطباع بأن الحضارة هي شيء ما تفرضه على اكثرية مشاكسة اقلية عرفت كيف تضع يدها على وسائل القوة والردع . ومن السهل في هذه الحالة ، على ما يبدو ، التسليم بأن هذه المصاعب ليست من جوهر الحضارة بالذات ، وانما هي مشروطة بعدم كمال الاشكال الثقافية التي تطورت حتى الآن . وبالفعل ، ليس من الصعب تسليط الضوء على هذه العيوب والشوائب . ففي حين حققت الانسانية تقدما متواصلا في السيطرة على الطبيعة ، وفي حين انه من حقها أن تتوقع المزيد من التقدم في هذا الميدان ، لا تستطيع ان تزعم أنها حققت تقدما مماثلا في تنظيم الشؤون الانسانية ، وليس من المستبعد أن يكون عدد غفير من الناس قد تساءلوا في جميع العصور ، شأنهم اليوم، عما اذا كان هذا الجزء من مكتسبات الحضارة يستأهل حقا الدفاع عنه . ويذهب بعضهم الى الافتراض بأن مثل هذا التنظيم الجديد للعلاقات الانسانية ممكن اذا تم التخلي عن الاكراه وعن قمع الغرائز،

بحيث ينضب معين الاستياء والتذمر اللذين توحي بهما الحضارة، ويصير في وسع البشر ، بعد التحرر من النزاعات الداخلية ، ان ينصرفوا بجماعهم الى اقتناء الموارد الطبيعية والتمتع بها . ان عصرا كهذا سيكون هو العصر الذهبي ، لكن من المشكوك فيه ان يكون مثل هذا الوضع قابلا للتحقيق . وانما يبدو بالاحرى أن كل حضارة ملزمة بأن تشيد نفسها على الاكراه وعلى نكران الغرائز ، وليس هناك حتى ما يجزم بأن غالبية الافراد على استعداد ، فور رفع الاكراه ، لتحمل مشاق الجهود الضرورية لاقتناء مصادر حيوية جديدة . ويخيل الي انه لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ان كل انسان تعشش فيه ميول هدامة ، وبالتالي مناهضة للاجتماع والثقافة ، وان هذه الميول قوية بما فيه الكفاية لدى عدد كبير من الاشخاص لتحدد سلوكهم في المجتمع الانساني .

تتلبس هذه الواقعة السيكولوجية أهمية حاسمة حين يكون المطلوب اصدار حكم على الحضارة . فقد كان من الممكن ان يسود الاعتقاد في السابق بأن جوهر الحضارة هو تسخير الطبيعة للحصول على الموارد الحيوية ، وبأن الاخطار التي تتهدد الحضارة ستتلاشى وتضمحل اذا ما تم توزيع الخيرات المقتناة على هذا النحو توزيعا مناسبا بين البشر ؛ ولكن يبدو الآن ان اللهجة تشدد على النفسي لا على المادي . فالسؤال الفاصل هو التالي : هل من امل في النجاح ، والى اي حد ، في تخفيف العبء الواقع على كاهل البشر بحكم اضطرارهم الى تضحية غرائزهم ، وفي اصلاح ذات البين بينهم وبين التضحيات التي ستبقى ضرورية ، وفي تعويضهم عنها ؟ الحق أنه كما لا يمكن الاستغناء عن الاكراه الذي يفرض مشاق الحضارة ، كذلك لا يمكن الاستغناء عن سيطرة اقلية ما على الجموع ، وهذا لان الجموع خاملة وعادمة الذكاء ، لا تحب نكران الفريزة ، ولا سبيل الى اقناعها بحجج ضرورة هذا هذا النكران وحتميته ، ولا يتحمل الافراد الذين تتألف منهم

بعضهم بعضا الا ليطلق كل واحد منهم العنان لشططه ومجونه (١) .

وما كان للجموع ان تقبل بتحمل المشاق والتضحيات التي تقوم عليها الحضارة لولا تأثير الاشخاص الذين يمكن أن تجد فيهم قدوة وأن تتخذ منهم هداة ومرشدين . ويسير كل شيء على ما يرام حين يكون هؤلاء الزعماء اصحاب رؤية سامية للضرورات الحيوية ، وحين يسمون بأنفسهم الى حد السيطرة على رغائبهم الغريزية الذاتية . لكن ثمة خطرا يظل يلوح في الافق : فهم يجازفون ، حتى لا يخسروا النفوذ الذي يتمتعون به ، بأن يتنازلوا للجموع بأكثر مما تتنازل لهم ، ولهذا يبدو أن الضرورة تقضي بأن توضع تحت تصرفهم وسائل تأديب وردع قمينة بصيانة استقلالهم عن الجموع . بمختصر الكلام ، هناك صفتان بشريتان من اكثر الصفات شيوعا تحولان دون امكانية بناء اي حضارة بدون قدر معين من الاكراه : كون البشر لا يحبون العمل بالفطرة وتلقائيا ، وكون الحجج والبراهين عادمة التأثير على اهوائهم .

أعرف الاعتراضات التي قد تقابل بها هذه التأكيدات . فقد يقال ان طباع الجموع ، الموصوفة هنا على نحو يؤكد حتمية الاكراه برسم مشاق الحضارة ، ليست هي نفسها سوى نتيجة تنظيم قاصر لهذه الحضارة ، تنظيم قضى على الناس بالخشونة والعسر، وبالظمأ الى الثأر ، وبجلافة المعشر . اما اذا انشئت الاجيال الجديدة على الحب واحترام الفكر ، واما اذا احست مبكرا بمحاسن الثقافة ، فان علاقتها بهذه الاخيرة ستكون مختلفة ، وسيخالجها غامر الشعور بأن هذه الثقافة انما هي ثقافتها ، وستكون على استعداد لتحمل التضحيات في سبيلها بالعمل

١ – بديهي ان المرء غير ملزم بأن يتبنى كل ما يقرؤه او ما يترجمه ، وان الموقف النقدي ضروري هنا كل الضرورة في مواجهة نظرة فرويد النخبوية هذه. – المترجم –

وبنكران التلبيات الغريزية الضروريين لبقائها واستمرارها . وسيكون في مستطاع هذه الاجيال أن تستغني عن الاكراه ، ولن يكاد يميزها شيء عن زعمائها . واذا لم توجد حتى اليوم جموع بشرية لها مثل تلك الخصال والسجايا في أي حضارة من الحضارات ، فهذا لان ما من حضارة من هذه الحضارات قد عرفت بعد كيف تتخذ التدابير القمينة بالتأثير على الناس على ذلك النحو ، وهذا منذ نعومة اظفارهم .

يحق لنا ان نشك في امكانية اتخاذ مثل تلك التدابير في يوم من الايام اطلاقا ، أو على الاقل في أيامنا هذه ، في ظل الحالة الراهنة لسيطرتنا على الطبيعة ؛ ومن حقنا أن نتساءل من أين سيبرز جحفل الهداة السامين ، الموثوقين المنزهين ، المفروض فيهم أن يكونوا مربين للاجيال الصاعدة ؛ ومن حقنا أن نتراجع مذعورين امام فكرة المجهود الجبار من الاكراه الذي لن يكون هناك مفر من بذله الى ان يتم بلوغ مثل ذلك الهدف . لكننا لا نستطيع ان نماري لا في عظمة هذه الخطة ، ولا في اهميتها بالنسبة الى مستقبل الحضارة الانسانية . ولا شك في انها تقوم على أساس الفطنة السيكولوجية اللبيبة المدركة ان الانسان محبو باستعدادات غريزية شديدة التنوع ، وان احداث الطفولة المبكرة تعيّن لهذه الاستعدادات أتجاهها النهائي . ولهذا أيضا تعين حدود قابلية الانسان للتربية حدود امكانية مثل ذلك التعديل للثقافة . ومن المباح لنا أن نشك في أن يكون في مقدور وسط حضاري آخر ـ والى اي مدى ـ أن يمحو عن الجموع الانسانية الصفتين اللتين تجعلان تصريف الشؤون البشرية في غاية الصعوبة والعسر . بيد أن التجربة لم تجر حتى اليوم . ولا ريب في ان نسبة مئوية محددة من البشرية ـ بحكم استعداد مرضي أو قوة غريزية مشتطة ـ ستبقى ابدا لاجتماعية ، ولكن اذا توصلنا الى تقليص تعداد الاكثرية الحالية المناوئة للثقافة حتى تصير اقلية نكون قد فعلنا الكثير ، بل ربما كل ما في المستطاع فعله .

لا اود ان يساور القاريء هنا شعور بأنني خرجت بلا مسوغ عن الطريق الذي رسمته لبحثي . ولهذا ارغب في أن اعلن بكامل الوضوح انه ليس في نيتي البتة ان اصدر حكما على التجربة الثقافية الكبيرة التي يمر بها اليوم الصقع الواسع الممتد بين اوروبا وآسيا (١) . فانا لا املك لا الكفاءة ولا الاهلية المطلوبتين للفصل في ما اذا كانت هذه التجربة قابلة للتطبيق العملي ، أو لامتحان فعالية الطرائق المستعملة ، أو لقياس مدى الصدع المحتم الفاصل بين النية والتنفيذ . فما يتهيأ هناك يدق عن الملاحظة ويفلت منها لانه لا يزال قيد الانجاز ، في حين أن حضارتنا ، التي ثبتت واستقرت منذ امد بعيد ، تقدم مادة غنية ثرة لدراستنا .

---

١ ـ الاشارة هنا الى تجربة الاتحاد السوفياتي . ـم ـ

- ٢ -

لقد انزلقنا ، دون قصد ، من الاقتصادي الى السيكولوجي .
ففي البداية كان هناك ما يغرينا بأن نبحث عن كنه الحضارة في الموارد المادية المتاحة وفي نظام توزيعها . لكن بعد التسليم بأن كل حضارة تقوم على الاكراه على العمل وعلى نكران الغرائز ، و تقابل بالتالي ، لا محالة ، بمعارضة اولئك الذين تفرض عليهم هذه المطالب ، يتضح بجلاء أن الموارد نفسها وسبل اقتنائها وتوزيعها لا يمكن أن تشكل لا جوهر الحضارة ولا طابعها الاوحد . ذلك أن هذه الموارد والسبل تجد نفسها مهددة بروح التمرد والظمأ الى التدمير لدى اولئك الذين يسهمون في الثقافة . ولهذا كانت هناك، الى جانب الموارد ، الوسائل التي يفترض فيها أن تستخدم للدفاع عن الحضارة ، كوسائل الردع والقهر وغيرها من الوسائل التي تهدف الى اصلاح ذات البين بين بني الانسان والحضارة والى تعويضهم عن تضحياتهم . وهذه الاخيرة يمكن حتى أن تعد ركيزة التراث الروحي للثقافة .

سوف نطلق ، بهدف توحيد مفرداتنا ، على واقعة عدم تلبية الفريزة اسم **الاحباط** ، وعلى الوسيلة التي يفرض بها هذا

الاحباط اسم **الحظر** ، وعلى الحالة التي تنجم عن الحظر اسم **الحرمان** . ولا بد بعد ذلك من التمييز بين الحرمان الذي يصيب الناس جميعا ، والحرمان الذي لا يصيب الناس جميعا ، وانما فقط بعض الفئات أو الطبقات او حتى الافراد . وضروب الحرمان الاول اقدمها عهدا ؛ وبفعل اشكال الحظر التي تمخضت عن هذه الضروب من الحرمان منذ آلاف السنين وآلافها ، شرعت الحضارة تنأى عن الحالة البدائية الحيوانية . وقد اكتشفنا ، على دهشة عظيمة منا ، أن تلك الضروب من الحرمان لم تفقد شيئا من قوتها، وانها لا تزال تشكل الى الساعة الراهنة نواة العداء للثقافة ؛ فالرغبات الغريزية التي تعاني منها الامرين تعاود الولادة مع كل طفل . وثمة طبقة بكاملها من الكائنات الانسانية ، من المصابين بالامراض العصبية ، ترد على تلك الضروب البدائية من الحرمان بالنفور من الحياة الاجتماعية . هذه الرغبات الغريزية هي رغبات حب المحارم واكل لحم البشر والقتل . وقد يبدو مستغربا ان نقرّب بين هذه الرغبات ، التي يجمع البشر طرا في الظاهر على استهجانها ، وبين الرغبات الاخرى التي تخوض حضارتنا في مناقشات حامية لمعرفة هل ينبغي أو لا ينبغي تلبيتها ، ولكن تقريبنا بينها له ما يبرره من وجهة النظر النفسية . وبالاصل ، لم يكن الموقف الذي اتخذته الثقافة من هذه الرغبات الغريزية الاقدم عهدا واحدا ومتماثلا ؛ فأكل لحم البشر هو وحده الذي يبدو مستهجنا ومرذولا من الجميع ، كما يبدو مهجورا ومهملا لكل عين مراقبة غير العين التحليلية . وبالمقابل ، لا يزال في وسعنا الى اليوم ان نتحسس وراء ستار الحظر قوة حب المحارم . كذلك لا يزال القتل ضمن نطاق الحضارة ، وفي بعض الشروط ، عادة متبعة بل مفروضة . ولعل الثقافة ستتطور على نحو سيجد معه الناس انفسهم ملزمين ذات يوم بأن ينظروا الى بعض التلبيات الغريزية الاخرى ، المباحة تماما اليوم ، بنفس عين الاستهجان التي

ينظرون بها الآن الى النزعة الى اكل لحم البشر .

وثمة عامل سيكولوجي ، كان له دوره في أقدم تلك الضروب من التنكر للغريزة ، لا يزال يحتفظ بأهميته بالنسبة الى كل ما سيتبع . فليس صحيحا القول ان النفس البشرية لم يطرأ عليها أي تطور منذ الازمنة البدائية ، وانها لا تزال الى اليوم في مواجهة تقدم العلم والتقنية على ما كانت عليه في منابت التاريخ . وفي وسعنا ان نلاحظ هنا وجها من وجوه هذا التقدم النفسي . فمما يتفق وتطورنا ان الاكراه الخارجي يجري استبطانه رويدا رويدا ، اذ تتبناه سلطة نفسية خاصة نسميها **الانا الاعلى** في الانسان . وكل ولد من اولادنا يكون بدوره مسرحا لهذا التحول ؛ وانما بفضله يصبح كائنا اخلاقيا واجتماعيا . واشتداد ساعد الانا الاعلى هذا هو ميراث سيكولوجي رفيع القيمة بالنسبة الى الثقافة . ومن يتعزز لديه الانا الاعلى يتحول من عدو الى الثقافة الى دعامة لها وسند . وكلما كان عدد هؤلاء في وسط ثقافي بعينه أكبر ، كانت هذه الحضارة أرسخ قدما ، وأقدر على الاستغناء عن وسائل الردع والقسر الخارجية . لكن درجة استبطان الحظر تتباين كثيرا بحسب الغريزة التي يصيبها هذا الحظر . أما فيما يتعلق بأقدم متطلبات الثقافة ، الآنفة الذكر ، فان الاستبطان قد تحقق على نطاق واسع على ما يبدو ، اذا ضربنا صفحا عن الاستثناء غير المناسب الذي يمثله المصابون بالامراض العصبية . لكن مظهر الاشياء يتبدل اذا تأملنا في المتطلبات الغريزية الاخرى . فنحن نلاحظ في هذه الحال ، وبدهشة وغم ، ان معظم الناس ينصاعون للنواهي الثقافية المتعلقة بتلك المتطلبات تحت ضغط الاكراه الخارجي وحده ، وبالتالي حيثما يكون هذا الاكراه محسوسا وبقدر ما يكون مهاب الجانب . وهذا ينطبق أيضا على تلك المتطلبات الثقافية المسماة بالاخلاقية ، التي تصيب الناس قاطبة بلا تفاوت . فحين يقول قائل انه لا يمكن الوثوق بأخلاقية الناس،

فالمقصود بذلك في أغلب الاحيان أشياء من هذا القبيل . وثمة عدد لا يقع تحت حصر من المتحضرين الذين سيتراجعون مذعورين، ولا بد ، امام فكرة القتل أو حب المحارم ، لكنهم لا يتأبون عن تلبية جشعهم وعدوانيتهم وشهواتهم الجنسية، ولا يترددون في الحاق الاذى بقريبهم بالكذب والخداع والافتراء ، اذا أمكن لهم أن يفعلوا ذلك بلا عقاب . وكذلك كانت الحال بلا شك في الازمنة الحضارية السحيقة التي لا تعيها الذاكرة .

اذا أمعنا النظر الآن في التقييدات التي لا تتناول سوى طبقات معينة في المجتمع ، وجدنا انفسنا امام وضع جلي بيّن ، لم يخف قط على أحد أصلا . فمن الطبيعي ان تحسد هذه الطبقات المغبونة اصحاب الامتيازات على امتيازاتهم ، وأن تبذل كلما فياستطاعتها لتتحرر من عبئها من الحرمانات الاضافية . وحيثما استحال ذلك برز في قلب هذه الحضارة قدر دائم من الاستياء والتذمر ، الامر الذي قد تتمخض عنه فتن خطرة . لكن حين لا تكون الحضارة قد تخطت المرحلة التي لا سبيل فيها الى تلبية مطالب شطر من المشاركين فيها الا باضطهاد الآخرين ، وربما الغالبية ، وهذا هو شأن جميع الحضارات اليوم ، فاننا نستطيع ان نفهم أن يتفجر قلب المضطهدين عن عداء حاد ومتعاظم للحضارة التي ما كانت لترى النور لولا كدهم وكدحهم ، والتي لا يعود اليهم مع ذلك من مواردها سوى حصة ضئيلة للغاية . ولا يسعنا في هذه الحال أن نتوقع وجود استبطان لدى هؤلاء المضطهدين للنواهي الثقافية . وانما هم بالاحرى على استعداد لعدم الاعتراف بهذه النواهي ، وفيهم ميل الى تدمير الحضارة نفسها ، بل الى انكار الاسس التي تقوم عليها . ان هذه الطبقات لعلى درجة عالية من العداء المكشوف للحضارة بحيث يتعذر على العين ، بالمقارنة ، ان تفطن الى العداء الكامن لدى الطبقات المحظوظة اكثر من غيرها . ومن نافل القول ان الحضارة التي تدع عددا كبيرا الى هذا الحد من المشاركين فيها

غير راضين وبلا تلبية ، والتي لا تترك لهم من منفذ سوى الفتنة، هي حضارة لا امل لها البتة في الاستمرار ولا تستأهل ذلك أصلا.

ان درجة استبطان القواعد الثقافية – وللكلام بلغة الشعب لا بلغة علم النفس : المستوى الاخلاقي للمشاركين فيها – ليست هي الظاهرة النفسية الوحيدة التي يجدر بنا ان نأخذها بعين الاعتبار حين نتطلع لاصدار حكم على قيمة حضارة من الحضارات . فهناك ايضا تراثها من المثل العليا والابداعات الفنية ، الامر الذي يعني : مشاعر الرضى التي تنبجس من تلك المثل العليا والابداعات .

ان دوافعنا كثيرة ، بل اكثر من اللازم ، لكي ندرج في التراث الروحي لحضارة من الحضارات مثلها العليا ، اي احكامها بصدد ما يسمو على كل شيء آخر ، وما يرجى تحقيقه اكثر من اي شيء آخر . وقد يبدو للوهلة الاولى ان هذه المثل العليا هي التي تحدد، ولا بد ، اشكال نشاط الجماعة الثقافية ، لكن التسلسل الحقيقي للعوامل يجب ان يكون كالتالي : ان المثل العليا تحتذي بأشكال النشاط الاولى التي تأذن بها مواهب فطرية وظروف خارجية لحضارة بعينها ، ثم تتثبت هذه الاشكال الاولى في صورة مثل أعلى حتى تكون قدوة تقتدى . وشعور الرضى والارتياح الذي يمنحه مثل من المثل العليا للمشاركين في حضارة معينة هو من طبيعة نرجسية ، والاساس الذي يقوم عليه هو الاعتزاز بما تم تحقيقه بنجاح . وحتى يأخذ ذلك الشعور بالرضى والارتياح كامل أبعاده ، تقوم كل حضارة بمقارنة نفسها بالثقافات الاخرى التي نذرت نفسها لمهام اخرى وشادت لنفسها مثلا عليا اخرى . وبفضل هذه الفوارق والاختلافات تدعي كل حضارة لنفسها حق ازدراء الحضارات الاخرى . هكذا تصبح المثل العليا الثقافية علة شقاق وعداوة وبغضاء بين الجماعات الثقافية المختلفة ، وكذلك بين الامم على ما هو ظاهر للعيان .

ان الشعور النرجسي بالرضى والارتياح المتولد عن المثل الاعلى

الثقافي هو بالاصل واحدة من القوى التي توازن وتعوض على انجع نحو عن العداء للحضارة داخل الجماعة الثقافية بالذات . وليست الطبقات صاحبة الامتيازات ، الطبقات التي تتمتع بمحاسن تلك الثقافة ، هي وحدها التي تستطيع المشاركة فيها ، وانما أيضا المضطهَدون ، اذ يعوضهم الحق في احتقار اولئك الذين لا ينتمون الى حضارتهم عن الاجحاف الذين يكابدون منه داخل جماعتهم بالذات. فقد يكون المرء من بؤساء العامة، فريسة لضروب الفرائض والخدمة العسكرية ، ولكنه بالمقابل مواطن روماني ، له نصيبه من مهمة السيطرة على الامم الاخرى واملاء القوانين والشرائع عليها. بيد ان تقمص المضطهدين هذا لشخصية الطبقة التي تسوسهم وتستغلهم ليس سوى جزء من كل او مجموع اكبر . ومن الممكن للمضطهَدين ، علاوة على ذلك ، ان يكونوا على ارتباط عاطفي بأولئك الذين يضطهدونهم ، وان يروا في سادتهم بالرغم من كراهيتهم لهم مثلهم الاعلى . ولو لم تكن مثل هذه العلاقات ، الباعثة على الرضى والارتياح في صميم الامر ، موجودة ، لما كان امكن لنا ان نفهم كيف استطاع عدد كبير من الحضارات ان يدوم ويعمر طويلا بالرغم من عداء الجموع الذي له ما يبرره ويسوغه .

بيد ان شعور الرضى والارتياح الذي يمنحه الفن للمشاركين في حضارة من الحضارات هو من طبيعة اخرى ، بالرغم من أن هذا الشعور يبقى بمنأى بوجه عام عن متناول الجموع التي يستغرقها عمل منهمك مضن ، والتي لم تتح لها التربية الشخصية المطلوبة . ان الفن ، كما نعرف ذلك منذ زمن طويل ، يقدم لنا ترضيات استبدالية تعويضا عن أقدم ضروب التنازلات الثقافية ، وعن تلك التي لا نزال نحس بوطأتها أعمق الاحساس ، ومن ثم فانه لا نظير له في توفيقه بين الانسان وبين التضحيات التي قدمها للحضارة . أضف الى ذلك أن الاعمال الفنية تشيد بمشاعر التشبه والتماهي التي تحتاج اليها كل جماعة ثقافية أشد الاحتياج

اذ تتيح لنا الفرصة لكي نختبر معا وبالتشارك سامي المتع ورفيع المسرات . كما أنها تعمل في خدمة ترضية نرجسية حين تتشخص فيها آثار ثقافة محددة ، وحين تذكرها على نحو مؤثر واخاذ بمثلها العليـــا .

اننا لم نأت بعد بذكر اهم جانب في الجردة النفسية لحضارة من الحضارات . نقصد به ، بأوسع المعاني ، افكارها الدينيـــة ، وبتعبير آخر ــ سنبرره فيما بعد ــ اوهامها .

- ٣ -

فيم تكمن القيمة الخاصة للافكار الدينية ؟

لقد تكلمنا للتو عن العداء للحضارة ، المتولد عما تمارسه وعما تتطلبه من نكران للغرائز . هل تتصورون جميع تلك النواهي وقد رفعت ؟ في هذه الحال سيكون في وسعكم أن تستولوا على كـل امرأة تروق لكم ، بدون تردد ، أو أن تقتلوا منافسكم أو كل مــن يقف في طريقكم ، او ان تختلسوا من الآخر مــا شئتم من املاكه من دون أن تأخذوا موافقته ! الا كم سيكون ذلك جميلا ، وما اكثر الملذات التي ستقدمها لنا الحياة في هذه الحال ! لكن الصعوبـة الاولى لا تلبث في الحقيقة أن تتكشف بسرعة . فالقريبي نفس ما لدي من رغائب ، ولن يعاملني بمراعاة أكبر من تلك التي سأعامله بها . وفي الواقع ، لو حطمت القيود التي تفرضها الحضارة ، فلن يمكن لغير انسان واحد ان يتمتع بسعادة لا محدودة، هو الطاغية، الدكتاتور الذي يكون قد احتكر جميع وسائل الردع والقسر ، وفي هذه الحال لن تعوزه المسوغات والاسباب لكي يتمنى أن يتقيــد الجميع بهذه الوصية الحضارية اليتيمة على الاقل : لا تقتل .

لكن كم يكون المرء جاحدا للجميل ، حسير النظر ، لو طمح الى الغاء الثقافة ! فلو الغيت الثقافة لما بقي شيء آخر سوى الوضعية الطبيعية ، وهذه يصعب تحملها اكثر من الحضارة بكثير . صحيح ان الطبيعة لا تطلب منا ان نحد من غرائزنا ، بل ترخي لها حبل الحرية كاملا ، لكن لها طريقتها ، وهي طريقة فعالة للغاية ، في تقييدنا : فهي تقضي علينا بكل برود وقسوة ووحشية ، على حد ما نتصور وتفعل ذلك بالضبط ارضاء لنا في بعض الاحيان. وانما بسبب هذه الاخطار التي تتهددنا بها الطبيعة اختصرنا المسافات فيما بيننا وتقاربنا وأوجدنا الحضارة التي من مبررات وجودها تمكيننا من الحياة المشتركة . وفي الحق ، ان المهمة الرئيسية للحضارة ، مبرر وجودها الاول ، أن تحمينا من الطبيعة .

ونحن نعلم أنها تؤدي هذه المهمة في العديد من المجالات على خير وجه ، وانها ستؤديها في المستقبل ، بلا شك ، على وجه أفضل ايضا . لكن ما من انسان يعلل نفسه بوهم أن الطبيعة قد روضت ، وقليلون هم الذين يجرؤون على أن يأملوا في تسخيرها بكاملها ذات يوم للانسان . واليكم العناصر التي تهزأ بكل نير قد يحاول الانسان فرضه عليها : الارض التي تزلزل وتنشق وتبتلع الانسان وما صنعت يداه ؛ الماء الذي يثور ويفيض ويغرق كل شيء ؛ العاصفة التي تكتسح كل ما في طريقها . وهي ذي كذلك الامراض التي بتنا نعلم منذ أمد قصير ، ليس الا ، انها تنشأ عن هجوم كائنات حية اخرى . وانظروا اخيرا الى لغز الموت الموجع ، الموت الذي لم نوجد له حتى الآن اي ترياق والذي لن نجده له ابدا . ان الطبيعة ، بهذه القوى ، تنتصب في وجوهنا معادية ، عظيمة ، قاسية ، لا تشفق ولا ترحم . وهي تذكرنا أيضا بضعفنا وعوزنا اللذين كنا نأمل أن ننجو منهما بفضل كد حضارتنا وكدحها . وانه لواحد من أندر المشاهد الرائعة والنبيلة التي يمكن أن يقدمها البشر ان نراهم يواجهون كارثة من كوارث العناصر الطبيعية وقد تناسوا خلافاتهم ومشاحناتهم وخصوماتهم التي

نفرّق بينهم كي يتذكروا مهمتهم الكبرى المشتركة : الحفاظ على الانسانية في مواجهة قوى الطبيعة المتفوقة .

ان الحياة ليصعب تحملها بالنسبة الى الفرد كما بالنسبة الى الانسانية بوجه عام . فالحضارة التي يشارك فيها تفرض عليه درجة محددة من الحرمان ، ويسبب له الناس الآخرون مقدارا معينا من الالم ، اما بخرقهم تعاليم هذه الحضارة واما بسبب نقصها وعدم كمالها . أضف الى ذلك المصائب التي تنزلها به الطبيعة الجامحة غير المروضة ، والتي يطلق عليها اسم المقادير . وقد ينجم عن ذلك قلق وهم دائمان من النوائب ، واذلال خطير للنرجسية الطبيعية . ونحن نعلم ما رد فعل الفرد على الاضرار والخسائر التي تنزلها به الطبيعة وسائر بني الانسان : فهو يواجه مؤسسات هذه الحضارة بمقاومة يتناسب حجمها وآلامه، ويقف من الحضارة بالذات موقف العداء . لكن كيف يذود عن نفسه خطر قوى الطبيعة أو المقادير العليا التي تتهدده بمثل ما تتهدد به سائر بني الانسان ؟

ان الحضارة تعفيه من هذه المهمة مثلما تعفي سائر الناس ، وبنفس الطريقة . وانه لما يلفت النظر ان جميع الحضارات تسلك هنا المسلك عينه . فالحضارة لا تتوقف لحظة واحدة في ادائها لمهمة الدفاع عن الانسان ضد الطبيعة ، ولكنها تغير فقط منهجها. والمهمة هنا متعددة الوجوه : فشعور الانسان الخاص بعزته وكرامته ، المعرض على الدوام الى التهديد ، يصبو ويتطلع الى عزاء وترضية ، والكون والحياة لا بد من تحريرهما من مخاوفهما ، ثم ان الفضول البشري ، الذي لا شك في أن حافزه يكمن في اقوى الاعتبارات العملية ، يتطلب جوابا .

الخطوة الاولى اذن في هذا الاتجاه هي بحد ذاتها تجلية عظيمة . وجوهرها «أنسنة» الطبيعة . فنحن لا نستطيع ان نواجه قوى ومقادير لاشخصية، فهي تبقى غريبة واجنبية عنا ابدا. لكن اذا كانت نفس الاهواء التي تموج في نفوسنا تضطرم في قلب عناصر

الطبيعة ، واذا لم يكن الموت نفسه أمرا عفويا وانما فعل عنيف ناجم عن ارادة خبيثة ، واذا كنا نحن انفسنا محاطين في كل مكان من الطبيعة بكائنات تضارع وتشبه الآدميين الذين يحيطون بنا ، فاننا نتنفس الصعداء عندئذ ، ونشعر وكأننا في بيوتنا وان كنا في جوف ما هو خارق للطبيعة ، ونستطيع بالتالي ان نتهيأ نفسيا لخوفنا الذي ما كنا لنعرف له معنى من قبل . وقد نبقى عزلا من السلاح ، ولكننا لا نعود مشلولين بدون اي امل ، بل نستطيع على الاقل أن نرد ، بل لعلنا لسنا حتى عزلا من السلاح : اذ يسعنا بالفعل أن نلجأ في مواجهة تلك الكائنات العليا العنيفة الى نفس الطرائق التي نستخدمها داخل مجتمعاتنا البشرية ، فنحاول ان نتملقها ونهدئها ونرشوها ، ونختلس بالتالي من خلال تأثيرنا هذا عليها جزءا من سلطانها . وهذه الاستعاضة عن علم طبيعي بعلم نفسي لا توفر لنا سوى انفراج فوري ، ولا تدلنا على الطريق الواجب اتباعه للسيطرة على الوضع باحكام اكبر .

ذلك أن هذا الوضع ليس بالجديد ، بل له نموذج بدئي ، طفلي ، لا يعدو ان يكون في الواقع استمرارا له . فقد سبق لنا أن وجدنا أنفسنا في ضائقة مماثلة ، حين كنا اطفالا صغارا في مواجهة أهالينا . وكانت لنا دواعينا لنخشى جانب هؤلاء ، ولاسيما والدنا ، وان كنا متأكدين في الوقت نفسه من حمايته لنا من الاخطار التي كنا نهابها يومئذ . هكذا وجد الانسان نفسه منقادا الى التقريب بين هذين الوضعين ، وهذا ما تجد فيه الرغبة ، كما في حياة الحلم ، ضالتها . فالنائم اذا ما ساوره هاجس الموت الذي يسعى الى نقله الى القبر ، تعرف تهيئة الحلم كيف تختار الظرف الذي يتحول فيه ذلك الموت الذي تخشاه النفس الى تحقيق لرغبة ، فيجد الحالم نفسه وقد انتقل على سبيل المثال الى قبر أتروري ، نزل اليه على ما يظن بملء ارادته ارضاء لاهتماماته بعلم الآثار . كذلك لا يجعل الانسان من القوى الطبيعية كائنات انسانية يسعه أن يقيم معها علاقات شبيهة بتلك

التي يقيمها مع أقرانه ــ فهذا لا يتفق وما تحدثه في نفسه من وقع ساحق ، ولكنه يضفي عليها صفات الاب ، ويحولها الى آلهة، مقتديا بذلك لا بنموذج طفلي فحسب وانما ايضا بنموذج نسالي ، كما حاولت أن أبين ذلك في مكان آخر .

ومع مر الازمان تراكمت الملاحظات الاولية عن نظامية ظواهر الطبيعة وقانونيتها ، فجردت القوى الطبيعية من سماتها وقسماتها الانسانية . لكن الضائقة البشرية تبقى كما هي ، ويبقى معها الحنين الى الاب والى الآلهة . وتحتفظ الالهة بمهمتها المثلثة التي يفترض فيها ان تؤديها : تعزيم (١) قوى الطبيعة ، مصالحتنا مع قسوة الاقدار كما تتجلى في الموت بوجه خاص ، واخيرا تعويضنا عن الالام والاوجاع والحرمانات التي تفرضها حياة المتمدينين المشتركة على الانسان .

ولكن بين وظائف الآلهة الثلاث هذه يتنقل التركيز شيئا فشيئا . فالبشر لا بد ان يلاحظوا في نهاية المطاف ان ظاهرات الطبيعة تحدث من تلقاء نفسها طبقا لضرورات داخلية . صحيح أن الالهة سادة الطبيعة ، وانهم هم الذين فطروها على ما هي عليه ، ولكن في وسعهم الآن ان يدعوها وشأنها . وبالفعل ، لا يتدخل الالهة في مجرى الظاهرات الطبيعية الا فيما ندر ، وذلك حين يصنعون معجزة ما ، كما لو انهم يريدون ان يؤكدوا لنا انهم لم يفقدوا شيئا من قوتهم البدائية . أما فيما يتعلق بصروف الاقدار وخطوبها ، فان ثمة هاجسا مبهما وغير محبب للنفس ينذرنا بأنه لا سبيل الى درء ضائقة الجنس البشري وحيرته واضطرابه. وهنا بالتحديد ينكشف عجز الآلهة : فلو انهم هم الذين يرسمون الاقدار حقا فلا بد من الاعتراف في هذه الحال بأن طرقهم يتعذر سبرها .

---

١ ــ التعزيم : طرد الارواح الشريرة . ــم ــ

وقد اشتبه اكثر شعوب العصور القديمة موهبة بأن المويرا (١) يسمون مقاما على الآلهة ، وأن الالهة أنفسهم يخضعون للقدر . وكلما فازت الطبيعة بمزيد من الاستقلال الذاتي، وكلما نفض الالهة ايديهم منها وانسحبوا منها ، تركزت الترقبات كافة أكثر فأكثر على مهمتهم الثالثة واضحت الاخلاقية ميدان اختصاصهم الفعلي. عندئذ تغدو مهمة الآلهة تدارك عيوب الحضارة ونواقصها والاضرار والخسائر التي تسببها ، والاهتمام بالالام والاوجاع التي ينزلها البشر ببعضهم بعضا بحكم حياتهم المشتركة ، والسهر على التقيد بأنظمة الحضارة التي لا ينصاع لها البشر الا على مضض بالغ . هكذا يُنسب أصل الهي الى انظمة الحضارة ، فترفع الى مستوى من الرفعة يتخطى المجتمعات البشرية ، وتسحب على نظام الطبيعة وتطور الكون .

على هذا النحو تتكون ذخيرة من الافكار ، وليدة عن الحاجة الى تلطيف الضائقة الانسانية ، مبنية بالمادة التي تقدمها ذكريات الضائقة التي كان عليها الانسان في طفولته الاولى كما في طفولة الجنس البشري . ويسير علينا ان ندرك ان الانسان يشعر ، بفضل هذه المكتسبات ، بأنه محمي من جانبين : من جهة اولى من أخطار الطبيعة والقدر ، ومن الجهة الثانية من الاضرار التي يتسبب فيها المجتمع الانساني .

هذا كله يعدل القول بأن الحياة ، في هذه الدنيا ، تعمل في خدمة تدبير سام أعلى ، تدبير يصعب التكهن بطبيعته ، لكنه ذو دخل بكل تأكيد بكمال كينونة الانسان . ولعل موضوع هذا التعظيم والتمجيد سيكون الشطر الروحي من الانسان ، الروح التي انفصلت على مر الزمن عن الجسد ببطء بالغ وعلى مضض شديد . وكل ما يحدث في هذه الدنيا ينبغي ان يعد تنفيذا لمقاصد

---

١ ـ المويرا : الاقدار عند الاغريق . ـم ـ

عقل يسمو على عقلنا ، عقل يدبر جميع الامور على احسن وجه ، اي لخيرنا ، وان سلك دروبا ومنعرجات يصعب تتبعها . وعلى كل منا تسهر عناية الهية رفيقة ، غير صارمة الا في الظاهر ، عناية لا تسمح بأن نصير العوبة بين أيدي القوى الطبيعية الساحقة العادمة الشفقة . وحتى الموت بالذات ليس اضمحلالا ، ليس عودة الى حيث اللاحياة واللاحركة، وأنما هو بداية ضرب جديد من الوجود، مرحلة على طريق تطور أسمى وأرفع . اما فيما يتعلق بالوجه الثاني للمسألة، فان القوانين الاخلاقية التي قامت عليها حضاراتنا هي عينها التي تسوس الكون ، بيد أن هناك على هذا المستوى محكمة عليا تسهر على التقيد بها بقوة ومنطق أعظم بما لا يقاس. فالخير يجد على الدوام في نهاية المطاف ثوابه ، كما يجد الشر قصاصه ، ان لم يكن في هذه الحياة الدنيا ، فعلى كل حال في الحياة اللاحقة التي تبدأ بعد الموت . يومئذ ستمحى من لوح الوجود كل مخاوف الحياة وآلامها وفظائعها ؛ وستحمل الينا الحياة بعد الموت ، التي هي استمرار لحياتنا الارضية ، مثلما ينضم الشطر غير المنظور من الشبح الى الشطر المنظور، كل الكمال وكل المثل العليا التي يمكن ان تكون قد أعوزتنا في هذه الدنيا الدنية . وما الحكمة السامية التي توجه هذه المقادير ، وما الطيبة الفائقة التي تتجلى فيها ، وما العدالة التي تتحقق فيها ، سوى سجايا الكائنات الالهية التي فطرتنا وفطرت الكون معنا . أو هي بالاحرى سجايا الباري الاحد الذي تجسدت وتكثفت فيه ، في عصرنا الحضاري هذا ، جميع آلهة الازمنة البدائية . ولم يكن شعور الاعتزاز والفخر، الذي خالج اول شعب فيالتاريخ حقق مثل ذلك التكثيف والتركيز للصفات الالهية ، بالشعور الباهت . فقد سلط بذلك الضوء على النواة الابوية ، المستترة ، لكن الماثلة في جميع الوجوه الالهية . وكان ذلك ، في واقع الامر ، عودة الى البدايات التاريخية لفكرة الله . اما وقد أصبح الاله الآن واحدا أحدا ، فقد بات في الامكان أن تتلبس علاقات الانسان به

صميمية علاقات الابن بالاب وقوتها . ومن بذل في سبيل الاب بقدر ما بذل ، لا بد أن تساوره الرغبة في أن يلقى على ذلك ثوابا، كأن يكون على الاقل الابن الوحيد الاثير لدى الاب ، أي الشعب المختار . وفي لاحق الازمان ادعت اميركا الورعة بدورها انها ارض الله الوحيدة .

والحق ان هذا الادعاء له ما يبرره من منظور هذا الشكل المحدد أو ذاك من الاشكال التي يعبد بها الانسان الاله .

بدهي ان الافكار الدينية التي لخصناها فيما تقدم قد نالها تطور مديد ، وتبنتها في مختلف مراحلها حضارات شتى . وقد اخترت هنا واحدة من هذه المراحل التطورية ، المرحلة التي تكاد تتطابق والمرحلة الاخيرة المتمثلة في الحضارة المسيحية الراهنة الخاصة بالعروق الغربية البيض . ويسير علينا أن نتبين أن مختلف الاجزاء التي يتألف منها هذا الجسم لا تتفق فيما بينها جميعا، وان هناك اسئلة عديدة هي من اشدها الحاحا قد بقيت بلا جواب ، وان تسوية التناقضات التي تنبجس عن التجربة اليومية لا تتم الا ببالغ المشقة . لكن هذه الافكار ــ الافكار الدينية بأوسع معنى الكلمة ــ تعد في وضعها الراهن أثمن تراث للحضارة وارفع قيمة في مستطاعها أن تقدمها للمشاركين فيها، قيمة تعتبر أسمى من كل فن انتزاع ما في الارض من كنوز ، ومن كل فن توفير أسباب الحياة للبشر ، أو من كل فن التغلب على امراضهم وقهر ادوائهم ، الخ. ويخيل لبني الانسان انهم ما كانوا ليطيقوا الحياة لولا ما يعزونه الى تلك الافكار من قيمة يزعمون أن لها ملء الحق فيها . وهنا ينطرح السؤال : ما كنه هذه الافكار على ضوء علم النفس ، وما منبع التوقير الرفيع الذي تحاط به ؟ بل اننا لن نحجم عن التساؤل : ما قيمتها الفعلية ؟

- ٤ -

ان بحثنا يأخذ شكل مونولوج متواصل لا يخلو البتة من اخطار. فقد يستسلم المرء بسهولة لاغراء اقصاء الافكار التي قد تقطع عليه حواره مع نفسه ، وينتابه بالمقابل احساس بعدم اليقين ، فيسعى الى ان يخنقه تحت وطأة ثقة بالنفس مبالغ فيها . سأتصور اذن أن امامي خصما يتابع محاجّتي بروح ارتياب وتشكك ، وسأفسح له المجال هنا وهناك لكي يلقي كلمة . ويتراءى لي أنه سيقول : «لقد استخدمت في اكثر من مرة العبارات التالية : ان الافكار الدينية هي من ابداع الحضارة ، والحضارة هي التي تضعها تحت متناول المشاركين فيها ؛ والحال ان هذه العبارات تبدو لي مستغربة بعض الشيء . انا نفسي لا استطيع ان احدد السبب ، لكن لا يبدو لي ان المسألة من البديهيات حين يقال ان الحضارة تنظم توزيع منتجات العمل ، أو الحقوق على المراة والاولاد» .

ــ بالرغم من ذلك ، اعتقد انه من حقي الكلام على النحو الذي تكلمت به . فقد حاولت ان ابين ان الافكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر فتوحات الحضارة ومنجزاتها : ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق . والى ذلك

ينضاف دافع ثانٍ : الرغبة الملحة الآسرة في تصحيح نواقص الثقافة ، تلك النواقص التي تترك وقعا اليما في النفس . فضلا عن ذلك ، فانه من مطلق الصحة ان نقول ان الحضارة تهب الافراد تلك الافكار ، اذ انه يلفاها موجودة من قبله ، مقدمة اليه على طبق جاهز ، ويعجز عن اكتشافها لو اراد ان يكتشفها من تلقاء نفسه. انها تراث سلسلة من الاجيال ، تراث يرثه ، يتلقاه ، مثله في ذلك مثل جدول الضرب والهندسة الخ . صحيح ان بين الامرين فرقا، لكنه يكمن في موضع آخر ، وليس في وسعنا هنا بعد ان نزيح النقاب عنه. ولعل شعور الغرابة الذي أشرتَ اليه يرجع جزئيا الى اعتيادنا على تصوير ذلك التراث من الافكار الدينية لانفسنا باعتباره وحيا منزلا . لكن هذا بذاته ، ومن الاساس ، جزء من النظام الديني ، وهذا ما يحمل الناس على أن يسقطوا من الاعتبار كل التطور التاريخي المعروف لتلك الافكار وتبدلاتها بحسب اختلاف العصور واختلاف الحضارات .

— «ثمة نقطة اخرى تبدو لي هامة . فأنت تشتق أنسنة الطبيعة من الحاجة التي تخامر الانسان الى ان يضع حدا لحيرته وضياعه وضائقته امام قوى الطبيعة المخيفة ، الامر الذي يتيح له ان يقيم علاقة معها وان يؤثر عليها في خاتمة المطاف . لكن مثل هذا التعليل يبدو من حشو الكلام . فالانسان البدائي لا خيار له: فهو لا يملك طريقة اخرى في التفكير . فمن الطبيعي عنده ، بل من شبه الفطري ، ان يسقط ماهيته الخاصة على العالم الخارجي ، وأن ينظر الى جميع الاحداث التي يلاحظها وكأنها من صنيع كائنات مشابهة له في واقع الامر . ذلك هو منهجه الاوحد في الفهم . وليس من الطبيعي البتة — بل ان هنا مصادفة تدعو الى العجب — ان نرى الانسان يفلح في تلبية واحدة من اهم حاجاته ، بمجرد ان يترك المجال حرا امام استعداداته الطبيعية».

— لا اجد ذلك يبعث على العجب الشديد. فهل تعتقد ان فكر البشر لا يملك دوافع عملية ، وانه لا يعدو ان يكون تعبيرا عن

فضول متجرد غير مغرض ؟ هذا مستبعد . بل أعتقد بالأحرى ان الانسان ، حين يشخص قوى الطبيعة ، يقتدي مرة اخرى بنموذج طفلي . فقد تعلم من الاشخاص الذين يؤلفون محيطه الاول انه لا بد له من ان يقيم معهم علاقة اذا كان يريد التأثير عليهم . ولهذا يسلك المسلك نفسه فيما بعد ، ولنفس الغرض ، مع كل ما يصادفه في دربه . انني لا أناقض بذلك ملاحظتك ذات الطابع الوصفي : فمن الطبيعي بالفعل لدى الانسان ان يشخص كل ما يريد فهمه حتى تمكنه السيطرة عليه فيما بعد — ان السيطرة النفسية هي التي تمهد الميدان امام السيطرة المادية — لكنني اقترح علاوة على ذلك دافعا ومنشأ لتلك الطريقة الخاصة في التفكير الانساني .

— «هناك ايضا نقطة ثالثة . فقد سبق لك ان عالجت في كتابك «الطوطم والمحرم» مسألة اصل الاديان . لكن الاشياء تبدت ، في ذلك الكتاب ، في مظهر آخر . فعلة كل شيء ترتد الى العلاقة بين الابن والاب . فالله هو اب موقر معظم ، والحنين الى الاب هو في جذر الحاجة الدينية . وقد اكتشفت بعدئذ ، على ما يبدو ، عامل الضعف والضائقة البشريين ، ذلك العامل الذي جرت العادة بالفعل على عزو الدور الاول اليه في تكوين الاديان، وهأنتذا تحول الى الضائقة كل ما كان في السابق عقدة ابوية . فهل أستطيع ان أسألك توضيحا حول هذا التحول في تفكيرك ؟» .

— عن طيب خاطر ، فأنا لم اكن انتظر سوى هذه الدعوة . لكن هل يمكن حقا ان يقال ان تفكيري قد تحول ؟ لم يكن قصدي في «الطوطم والمحرم» ان أفسر اصل الاديان ، وانما فقط اصل الطوطمية . فهل تستطيع ، من اي وجهة نظر معروفة لديك ، ان تفسر لماذا كان الشكل الاول الذي تجلت فيه الألوهية الحامية الواقية هو الشكل الحيواني، ولماذا حُرّم قتل هذا الحيوان واكله، ولماذا كان يقتل مع ذلك مرة في كل سنة — عادة احتفالية كبرى — ويؤكل على مائدة مشتركة ؟ هذا بالضبط ما يحدث في الطوطمية.

ولن نجني فائدة اذا دخلنا في نقاش لنعرف هل من المناسب ان نسمي الطوطمية دينا . فللطوطمية صلات حميمة بالاديان اللاحقة التي تظهر فيها آلهة وتتحول فيها الحيوانات الطوطمية الى حيوانات الآلهة المقدسة . واهم القيود الاولى ــ حظر قتل الانسان وحظر حب المحارم ــ التي تفرضها الاخلاق ، ترى النور في اطار الطوطمية . وسواء اقبلت ام لم تقبل باستنتاجات «الطوطم والمحرم» ، فانني آمل ان توافقني على ان هذا الكتاب، الذي يضم عددا معينا من الوقائع المنفردة الباعثة على الاستغراب الشديد ، قد نسق بينها في كل واحد متلاحم .

اما السبب الذي قضى بألا يعود الإله الحيواني كافيا على المدى الطويل ، فحل محله الإله الانساني ، فهذه مشكلة لم يمسها «الطوطم والمحرم» الا مسا خفيفا . كما ان هذا الكتاب لم يتطرق بتاتا الى ذكر مشكلات اخرى تتعلق بتكوين الاديان . لكن هل تعتقد ان مثل هذا التحديد او الحصر يعادل نفيا ؟ ان عملي مثال جيد على العزلة التي قد تفرض على اسهام الملاحظة التحليلية النفسية في حل المشكلة الدينية . واذ احاول الان ان اضيف اليه شيئا آخر اقل خفية عن الانظار ، فلا ينبغي اتهامي اليوم بمناقضة نفسي مثلما اتهمت في الماضي بأحادية الجانب . ان مهمتي هي بالطبع ان ابين الطريق التي تربط ما قلته يومئذ بما ادعيه الان ، الطريق التي تربط الحافز العميق بالظاهر ، العقدة الابوية بضائقة البشر وبحاجتهم الى الغوث .

هذه الطريق لا يصعب اكتشافها . فهي تتكون من العلاقات التي تربط الضائقة الطفلية بالضائقة الراشدية التي هي استمرار واستطالة لها ، بحيث يكون التعليل النفسي التحليلي لتكوين الاديان هو هو نفسه، كما هو متوقع، المساهمة الطفلية في تعليله الظاهر . لنتصور في مخيلتنا الحياة النفسية للطفل الصغير . انتم تذكرون ، ولا بد ، ما يتحدث عنه التحليل من اختيار للموضوع على منوال «البحث عن سند» ؟ فاللبيدو يتبع طريق

الحاجات النرجسية وينجذب الى المواضيع التي تكفل تلبيته . هكذا تصبح الأم ، التي تلبي او تسد الجوع ، الموضوع الاول للحب ، وفضلا عن ذلك الحامية الاولى ، بكل تأكيد ، من جميع الاخطار المبهمة غير المحددة التي تتهدد الطفل في العالم الخارجي. بل يجوز لنا ان نقول انها تصبح الحامية الاولى من القلق والحصر.

وسرعان ما يحل محل الأم في هذا الدور الاب الاشد قوة وبأسا ، ويبقى هذا الدور وقفا على الاب على امتداد الطفولة . بيد ان العلاقة بالاب مشوبة بازدواجية خاصة . فالاب يشكل بذاته خطرا ، وربما بسبب العلاقة البدائية بالأم . وعليه ، نراه يوحي بالمهابة والخوف بقدر ما يوحي بالحنين والاعجاب . وأمارات هذه الازدواجية تترك عميق بصمتها على الاديان كافة ، كما اوضحت ذلك في «الطوطم والمحرم» . وحين يتبين الطفل ، وهو يشب ويترعرع ، انه مقضي عليه بأن يبقى ابد حياته طفلا ، وانه لن يكون في مقدوره ابدا ان يستغني عن الحماية من القوى العليا والمجهولة، يضفي عندئذ على هذه القوى قسمات وجه الاب ، ويبتدع لنفسه آلهة ، آلهة يخشى جانبها ويسعى الى ان يحظى بعطفها ويعزو اليها في الوقت نفسه مهمة حمايته . هكذا يتفق حنين الطفل الى الاب مع ما يحس به من حاجة الى حماية بحكم الضعف البشري ؛ كما ان رد فعل الطفل الدفاعي حيال شعور الضيق يتفق ورد فعل الراشد حيال الشعور بالضيق الذي يخالجه بدوره ، والذي يتولد عنه الدين وسماته المميزة . لكن لا يدخل في قصدنا ان نتوغل الى اعمق من ذلك في دراسة تطور فكرة الله ؛ وانما شاغلنا هنا الذخيرة المتكونة من الافكار الدينية كما تنقلها الحضارة الى الفرد .

- ٥ -

لنتابع الان بحثنا : ما الدلالة السيكولوجية للافكار الدينية ، وفي اي باب يمكننا تصنيفها ؟ ليس من السهل البتة ، للوهلة الاولى ، الاجابة على هذا السؤال . وبعد ان نرد العديد من الصيغ سنتمسك بالتالية : الافكار الدينية معتقدات ، توكيدات تتعلق بوقائع العالم الخارجي (او الداخلي) وعلاقاته ، وهذه المعتقدات تعلمنا اشياء لم نكتشفها بأنفسنا وتتطلب من جانبنا فعل ايمان . ولما كانت هذه المعتقدات تطلعنا على اهم ما في الحياة وعلى اكثر ما فيها اثارة للاهتمام ، على ما يخيل الينا ، فانها تحظى برفيع التقدير . فمن يجهلها يكن مطبق الجهل ، ومن دمجها بعلمه يسعه ان يعد نفسه مالكا لمعرفة عظيمة الاغتناء .

هناك بالطبع «معتقدات» تتعلق بالاشياء الاكثر تنوعا في هذا العالم . وكل ساعة يقضيها المرء على مقاعد الدراسة تعج بها . لنأخذ الجغرافية . كان يُردد على مسامعنا في المدرسة ان مدينة كونستانس تقع على البودنسي (بحيرة بودنسي) . وتضيف اغنية طالبية : من لا يصدق ذلك فليذهب وير بنفسه ! وقد شاءت الصدفة ان اذهب الى هناك ، وفي وسعي ان اجزم : ان تلك

المدينة الجميلة تقع على ضفة متسع رحب من الماء يطلق عليه جميع سكان الجوار اسم البودنسي . هكذا اكون قد بت على يقين تام الان من ان ذلك الادعاء الجغرافي صحيح . لكنني اتذكر بهذه المناسبة حادثا آخر مثيرا فعلا للفضول .

وجدت نفسي ذات يوم ، ولاول مرة في حياتي بعد ان ادركت سن النضج ، في اثينا على تلة الاكروبول ، بين انقاض المعابد ، اجيل الطرف في البحر الازرق . كان يخالط فرحي شعور بالدهشة يحدوني الى القول : «الاشياء هي اذن فعلا كما كانوا يعلموننا اياها في المدرسة ! فهل يعني هذا ان ايماني بما كنت أسمعه كان بالغ الوهن والسطحية حتى ينتابني ما ينتابني اليوم من دهشة شديدة !» . لكنني لا اريد ان أعلق وزنا اثقل مما ينبغي على هذا الحادث : فثمة تفسير آخر ممكن لدهشتي ، تفسير لم يخطر لي ساعتئذ في بال ؛ وهذا التفسير له صفة ذاتية مطلقة وعلى صلة بالطابع الخاص للمكان .

ان جميع «المعتقدات» التي من هذه الشاكلة تتطلب الايمان بما تدعيه ، لكنها لا تترك هذا الادعاء بلا ركائز يقوم عليها . فهي تقول عن نفسها انها خلاصة جهود طويلة في مجال المعرفة ، تستند الى الملاحظة ، وكذلك ، بكل تأكيد ، الى الاستدلال العقلي . وهي تهدي ذاك الذي عقد النية على ان يعاود بنفسه جميع تلك الجهود بدلا من ان يقبل بتلك النتيجة جاهزة ، تهديه الى الطريق الواجب اتباعها . ويُحسب هنا على الدوام حساب مصدر المعرفة التي تزود بها تلك المعتقدات الانسان ، حين لا يكون هذا المصدر ، كما في التوكيدات الجغرافية ، بديهية مسلما بها . على سبيل المثال: ان للارض شكل كرة ؛ ومن البراهين التي تقدم على كرويتها تجربة نواس فوكو ، وظاهرات الافق ، والطواف البحري حول الارض . ولما كان من المتعذر ــ هذا امر يستطيع كل انسان ادراكه ــ ارسال جميع اولاد المدارس للقيام بجولة حول العالم ، فان الاساس الذي يُبنى عليه التعليم المدرسي ، والحالة هذه ، هو الايمان والتسليم،

لكن يظل معلوما ان طريق الاقتناع الشخصي مفتوح دوما .

لنحاول ان نطبق الروائز نفسها على المعتقـــدات الدينية .

ولنتساءل : ما الاساس الذي تستند اليه مطالبتها ايانا بالتصديق والايمان ؟ ثمة ثلاثة اجوبة على ذلك لا يجمع بينها رباط مكين . فهي تستأهل ، اولا ، التصديق لان اسلافنا الاوائل كانوا يؤمنون بها . ونحن نملك ، ثانيا ، أدلة وبراهين يعود تاريخها الى تلـــك الازمنة البدائية بالتحديد ، وقد تناقلتها الاجيال حتـــى وصلت الينا . ومن المحظر ، ثالثا واخيرا ، طرح مسألة صدقها وصحتها. وهذه فعلة متهورة كانت تعاقب في الماضي بأصرم القصاص ، ولا يزال المجتمع الى اليوم ينظر بعين الاستهجان الى من يتجرا على تكرارها .

ان هذه النقطة الثالثة لا بد ان تثير شكوكنا الى اقصى درجة. فمثل هذا التحظير لا يمكن ان يكون له بالفعل سوى دافع واحد: فالمجتمع يعلم اي اساس واهن تقوم عليه مذاهبه الدينية . ولو كانت الحال على غير ما نقول لكان المجتمع وضع ، بكل تأكيد ، المادة الضرورية في متناول كل من يريد الوصول الى اقتنـــاع شخصي . ولهذا نتصدى ، بشعور بالتشكك يصعب علينا اسكاته، لتمحيص الحجتين الباقيتين . فعلينا ان نؤمن لان اسلافنا آمنوا. لكن هؤلاء الاسلاف كانوا اشد جهلا منا بكثير ، وكانوا يؤمنـــون بأشياء يتعذر اليوم قبولها . من الممكن اذن ان تدخـــل المذاهب الدينية نفسها في هذا الباب . والادلة ، التي تركوها لنا ميراثا ، مدونة في نصوص يحيط بها هي نفسها الشك . فهذه النصوص تعج بالتناقضات والمراجعات والتدليسات . ولا يمكن الوثـــوق اليها حتى عندما تتكلم عن وقائع ثابتة . اما ما تدعيه لنصهـــا الحرفي ، او على الاقل لمؤداه وفحواه ، من وحي إلهي ، فليس بذي وزن كبير ، اذ ان هذا التوكيد يشكل هو نفسه جزءا من تلك المنظومة المذهبية المطلوب تمحيصها والتحقق منها ، ولا يمكن لاي فرضية ، كائنة ما كانت ، ان تبرهن على نفسها بنفسها .

هكذا نصل الى هذا الاستنتاج الغريب في نوعه : ان ذلـك الجزء من ميراثنا الثقافي ، الذي يمكن ان تكون له اعظم الاهمية بالنسبة الينا ، والذي من مهمته ان يفسر لنا ألغاز الكون وأسراره وان يؤالف بيننا وبين اوصاب الحياة، ان ذلك الجزء بالتحديد هو الذي يقوم على أقل الادلة متانة واكثر البراهين وهيا . والحق اننا لا نستطيع ان نسلم حتى بواقعة ذات طابع حيادي مطلق ، كواقعة انجاب الحيتان لصغارها بدلا من ان تضع البيض ، لو كان البرهان عليها واهيا على ذلك النحو .

ان هذا الوضع القائم هو في حد ذاته مشكلة سيكولوجيـة مثيرة للفضول الشديد . وأرجو اصلا الا يتصور احد ان الملاحظات السابقة عن استحالة البرهان على المذاهب الدينية تنطوي ولو على قدر نزير من الجدة . فهذه الاستحالة كان معترفا بها على مـر الازمان ، وبالتأكيد ايضا من قبل الاسلاف الذين اورثونا ذلـــك الميراث . فمما لا ريب فيه ان الكثيرين منهم ساورتهم عين الشكوك التي تساورنا نحن الان ، لكن الضغط الذي كانوا يرزحون تحته كان اقوى من ان يجرؤوا على الافصاح عنها . ومنذ ذلك الحين تقلب الكثير من الرجال على فراش عذاب الشكوك نفسها ، تلك الشكوك التي كان بودهم لو يخنقونها ويكتمون انفاسها لاعتقادهم بأن الايمان واجب عليهم وفريضة . كذلك كان الفشل مآل العديد من العقول الذكية اللامعة بنتيجة ذلك النزاع ، كما تثلمت وتآكلت شكائم قوية كثيرة بنتيجة التسويات التي ارادت ان تخرج بها من ذلك النزاع .

اذا كانت جميع الادلة والبراهين التي تساق لتأكيد صحة المعتقدات الدينية تستقى من الماضي ، فمن الطبيعي والحالة هذه ان نلقي نظرة سريعة حوالينا حتى نرى الا يستطيع الحاضر ، الذي يسهل علينا ان نصدر عليه حكما قياسا الى الماضي ، ان يقدم هو ايضا ادلة وبراهين مماثلة . فلو أفلحنا عن هذا الطريق في تحرير جزء صغير واحد من النظام الديني من الشك والريبة ، لامكن لهذا

النظام ان يكتسب في مجمله قابلية هائلة للتصديق. وهنا بالتحديد يتدخل نشاط من يناجون الارواح ويستحضرونها ؛ فهم كلهم ثقة ويقين بأن نفس الفرد تبقى على قيد الحياة ، ويريدون ان يبرهنوا لنا على ان هذا البند من بنود المذهب الديني لا يقبل مماراة او تشكيكا . لكنهم لسوء الحظ لم يتوصلوا الى دحض حقيقة ان الاشباح وتظاهراتها الروحية ليست سوى نتيجة نشاطهم النفسي هم بالذات . فقد استحضروا أرواح عظام الرجال وأشهر المفكرين، لكن جميع تظاهرات هؤلاء والمعلومات المستقاة منهم كانت على درجة من السذاجة والتفاهة بحيث يتعذر علينا ان نؤمن بشيء آخر سوى قدرة الارواح على التكيف مع مستوى الناس الذين استحضروها .

ينبغي الان ان نشير الى محاولتين تدللان كلتاهما على مجهود متشنج للتملص من المشكلة . الاولى مبنية على العنف وقديمة . والثانية اريبة حاذقة وحديثة . الاولى هي قانون آباء الكنيسة عن الايمان : Credo quia Absurdum (١) . وهذا يعدل القول بأن المذاهب الدينية لا تخضع لمقتضيات العقل والمنطق ، بل تتعالى عليهما . وعليه ، فان الاحساس بحقيقتها لا بد ان يكون داخليا ، ولا ضرورة البتة لفهم هذه الاخيرة . بيد ان قانون الايمان هذا لا اهمية له الا بقدر ما يكون عقيدة شخصية ؛ اما بصفته مرسوما فانه لا يلزم احدا . هل يمكن ان اكون مرغما على تصديق جميع الاحالات ؟ واذا لم يكن الجواب بالايجاب ، فما الداعي لان ألزم بتصديق تلك الاحالة بعينها ؟ الحق انه ليس ثمة سلطة تعلو على سلطة العقل ، ولا حجة تسمو على حجته . واذا كانت حقيقة المذاهب الدينية مرهونة بحدث داخلي يشهد على تلك الحقيقة ،

١ ــ باللاتينية في النص ، وتعني «أؤمن به لانه محال» . وهذا القول ينسب الى القديس اوغسطينوس . ـم ـ

فما العمل بجميع أولئك الناس الذين لا يقع لهم مثل ذلك الحدث النادر ؟ في وسعنا ان نطلب من جميع الناس ان يستخدموا العطية التي منحت لهم ، العقل ، لكننا لا نستطيع ان نفرض على الجميع التزاما مبنيا على اساس عامل لا وجود له الا لدى حفنة ضئيلة للغاية منهم . واذا كان قد حصل لك ، خلال لحظة الوجد التي استولت على جماع كيانك ، اليقين الراسخ الوطيد بحقيقة المذاهب الدينية وصحتها ، فبمَ يمكن ان يهم ذلك الآخرين ؟

اما المحاولة الثانية فهي محاولة فلسفة «كما لو أن» ، ومؤداها : اننا نقبل بأن ندرج في عداد عملياتنا المعرفية جميع ضروب الفرضيات التي يتجلى لنا بكل وضوح افتقارها الى اساس، بله إحالتها ومخالفتها للعقل . ونحن نطلق على هذه الفرضيات اسم التخيلات او الاوهام ، لكن لا مناص لنا ، بحكم اسباب عملية متعددة ، من أن نتصرف «كما لو اننا» نؤمن بهذه التخيلات والاوهام . وفي هذا الباب بالتحديد تدخل المذاهب الدينية ، بالنظر الى أهميتها المنقطعة النظير في الحفاظ على المجتمعات البشرية وصيانتها (١) . والحق ان مثل هذه الحجج ليست بعيدة غاية البعد عن «انني أؤمن به لانه محال» . لكني اعتقد ان الفيلسوف هو وحده الذي يستطيع ان يتخيل مطلب «كما لو أن».

١ ــ لا احسب نفسي مرتكبا جورا اذا جعلت واضع فلسفة «كما لو ان» يعرض هنا وجهة نظر ليست غريبة عن مفكرين آخرين كذلك. قارنوا هـ . فايهنجر، «فلسفة كما لو ان» ، الطبعة السابعة والثامنة ، ١٩٢٢ ، ص ٦٨ : «اننا ندرج في عداد الاوهام والتخيلات لا العمليات النظرية الحيادية فحسب ، بل ايضا الانشاءات التفاكرية التي تشيدها أنبل النفوس ، والتي تأسر قلوب أنبل شطر من الانسانية ، والتي لا تطيق هذه الاخيرة ان تُنتزع منها . على كل حال ، ليس في نيتنا البتة ان نفعل ذلك : فنحن لن نمس هذه الانشاءات التفاكرية بصفتها اوهاما وتخيلات عملية ، وهي لا تفنى الا بصفتها حقائق نظرية» .

اما الانسان الذي لا يتأثر فكره بشعوذة الفلسفة واحابيلها ، فلا يمكنه ابدا ان يسلم بذلك . فهو لا يرى مجالا لاضافة شيء جديد بعد ان يقر مخاطبه بأن الامر محال ومخالف للعقل . وليس في وسعنا ان نطلب اليه ان يتخلى ، حين تكون المسألة متعلقة بمصالحه الاكثر حيوية على وجه التحديد ، عن الضمانات التي يطالب بها اصلا بخصوص جميع نشاطاته الاعتيادية . واني لاتذكر هنا واحدا من اولادي تميز ، منذ نعومة اظفاره ، بحس بالواقع شديد البروز . ففي حين كان سائر اولادي يصغون بخشوع الى حكاية من حكايا الجنيات ، كان هو ينبري ليسأل : «اهي قصة حقيقية ؟» . فاذا ما جاءه الجواب بالسلب ، أدار ظهره وابتعد بادي الازدراء . وفي مقدورنا ان نتوقع ان يسلك بنو آدم عما قريب المسلك نفسه حيال حكايا الجنيات الدينية بالرغم من شفاعة «كما لو أن» .

بيد انهم لا يزالون الى اليوم يسلكون غير ذلك المسلك ، وقد كان للافكار الدينية في الازمنة الغابرة اعظم نفوذ واقوى تأثير على البشرية ، بالرغم من افتقارها بلا مراء الى الصحة والصدق . وهذه في الحقيقة مشكلة سيكولوجية جديدة تحتم علينا ان نتساءل فيمَ تكمن القوة الباطنة لهذه المذاهب ، وما الظروف التي تدين لها بتلك الفاعلية المستقلة عن رقابة العقل ؟

- ٦ -

اعتقد انه قد تم الاعداد اعدادا كافيا للاجابة على ذينك السؤالين . واننا لواجدونها حين نوجه انظارنا نحو التكوين النفسي للافكار الدينية . فهذه الافكار ، التي تطرح نفسها على انها معتقدات ، ليست خلاصة التجربة او النتيجة النهائية للتأمل والتفكير ، وانما هي توهمات ، تحقيق لاقدم رغبات البشرية واقواها واشدها الحاحا . وسر قوتها هو قوة هذه الرغبات . وبالاصل ، نحن نعلم ذلك : فالاحساس المرعب بالضائقة الطفلية ايقظ الحاجة الى الحماية — الحماية بالحب — وهي حاجة لباها الاب . وإدراك الانسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها جعله يتشبث بأب ، اب اعظم قوة واشد بأسا هذه المرة . فالقلق الانساني ازاء أخطار الحياة يسكن ويهدأ لدى التفكير بالسلطان الرفيق العطوف للعناية الالهية ، كما ان ارساء اسس نظام اخلاقي يكفل تلبية مقتضيات العدالة ، هذه المقتضيات التي لبثت في غالب الاحيان غير متحققة في الحضارات الانسانية ؛ ثم ان اطالة الحياة الارضية بحياة مستقبلة تقدم أطار الزمان والمكان الذي ستتحقق فيه تلك الرغبات . ومن مقدمات المنظومة الدينية تشتق وتتفرع

اجوبة على الاسئلة التي يطرحها الفضول البشري على نفسه بصدد الالغاز التالية : اصل الكون ، العلاقة بين الجسد والروح ، الخ. ولكم يخف العبء على النفس الفردية حين ترى صراعات الطفولة المنبثقة عن المركّب الابوي – وهي صراعات لم تحل قط تمام الحل – وقد أُسقطت عن كاهلها اذا صح التعبير وتلقت لها حلا يقبل به الجميع .

حين اقول ان ذلك كله عبارة عن توهمات ، فلا بد لي من تحديد معنى هذه الكلمة . فليس التوهم والخطأ شيئا واحدا ، كما ان التوهم ليس بالضرورة خطأ . ان ما ذهب اليه ارسطو من ان الدود وليد القذارة – وهو رأي لا يزال يعتنقه الجهلة من الناس – كان خطأ . كذلك خاطىء هو الراي الذي كان يقول به جيل سابق من الاطباء من ان السهام (١) نتيجة للشطط الجنسي. ومن الخطأ ان نسمي هذه الاخطاء توهمات ، في حين ان كريستوف كولومبوس كان بالفعل واهما عندما حسب انه اكتشف طريقا بحرية جديدة الى الهند . وحصة الرغبة في هذا الخطأ جلية ظاهرة . ومن الممكن ان نطلق صفة الوهم على زعم بعض ذوي النزعة القومية ممن يؤكدون ان العروق الهندية – الجرمانية هي العروق البشرية الوحيدة المؤهلة للحضارة ، او أيضا على الاعتقاد بأن الطفل كائن مجرد من الغريزة الجنسية ، وهو الاعتقاد الذي تحطم للمرة الاولى على يد التحليل النفسي . وخاصية الوهم انه متفرع عن رغبات انسانية . وهو يقترب بذلك من الفكرة الهاذية في الطب النفسي ، ولكنه يظل متميزا حتى اذا لم نأخذ بعين الاعتبار البنية المعقدة للفكرة الهاذية .

ان الفكرة الهاذية متناقضة جوهرا – ونحن نشدد على هذه الصفة – مع الواقع ؛ بينما ليس الوهم بالحتم والضرورة خاطئا،

---

١ – هزال مصاحب لمرض مزمن . –م–

اي غير قابل للتحقيق او متناقضا مع الواقع . ان لفي مستطاع فتاة وضيعة النسب ان توهم نفسها ، على سبيل المثال ، بأن اميرا من الامراء سيأتي باحثا عنها ليتزوجها . والحال ان ذلك ممكن ؛ وقد حدثت فعلا بعض حالات من هذا النوع . بيد انه لامر أبعد بكثير عن الاحتمال ان يأتي المسيح المنتظر ويفتتح العصر الذهبي : ومن يَدعُ الى اصدار حكم على هذا الاعتقاد فسيصنفه، تبعا لموقفه الشخصي ، بين الاوهام او بين نظائر الفكرة الهاذية . وليس من اليسير عادة العثور على امثلة من التوهمات الفعلية ؛ على ان توهم السيميائيين انهم قادرون على تحويل جميع المعادن الى ذهب يمكن ان يندرج في عداد تلك الامثلة . وقد خفت الان كثيرا الرغبة في امتلاك الذهب الكثير ، في امتلاك اكبر قدر ممكن من الذهب ، بعد ان تطور فهمنا لطبيعة الغنى وشروطه ؛ على ان الكيمياء لم تعد مع ذلك تعتبر تحويل المعادن الى ذهب من مستحيلات الامور . هكذا نسمي توهما كل اعتقاد تكون الغلبة في حوافزه ومعللاته لتحقيق رغبة من الرغبات ، ونحن لا نقيم اعتبارا في ذلك لعلاقات هذا الاعتقاد بالواقع ، تماما كما أن التوهم عينه ينكص عن ان يجد في الواقع توكيدا له .

لنعد ، بعد هذه التوضيحات ، الى المذاهب الدينية . ولنكرر من جديد : ان المذاهب الدينية جميعها أوهام ، لا سبيل الى اقامة البرهان عليها ، ولا يمكن ان يُرغم اي انسان على ان يعدها صحيحة وعلى ان يؤمن بها . وبعض هذه المذاهب بعيدة الاحتمال وصعبة التصديق للغاية ، ومتناقضة اشد التناقض مع كل ما تعلمناه ، ببالغ المشقة ، عن واقع العالم والكون، الى درجة نستطيع معها ان نشبهها – مع اخذنا بعين الاعتبار كما هو واجب الفروق السيكولوجية – بالافكار الهاذية . ومعظمها يصعب الحكم على قيمته الفعلية ؛ ولا سبيل الى دحضها كما لا سبيل الى اثباتها . ومعلوماتنا لا تزال أوهى من ان يمكننا التطرق اليها عن قرب اقرب ، من وجهة النظر النقدية . ولغز الكون لا يتكشف لتقصينا

وتنقيبنا الا ببالغ البطء ، وهناك اسئلة كثيرة لا يزال العلم عاجزا الى اليوم عن الاجابة عليها . بيد ان العمل العلمي هو الطريق الوحيدة التي يمكن ان تؤدي الى معرفة الواقع الخارجي . وانه لن التوهم ايضا ان نتوقع اي شيء كان من الحدس او من الاستبطان . فالحدس لا يمكن ان يعطينا سوى اشارات – صعبة التأويل – حول حياتنا النفسية ، ولا يقدم لنا البتة اي معلومات تتعلق بالمسائل التي يجد لها المذهب الديني ببالغ اليسر أجوبة . ولن نكون الا منتهكين للقدسيات اذا اردنا ان نردم الثغرة على النحو الاعتباطي الذي نشاء ، وأن نحكم تبعا لمشاعرنا الشخصية هل هذا الجزء او ذاك من أجزاء النظام الديني مقبول بقدر او بآخر . فهذه المسائل جد مهمة ، أقصد جد مقدسة .

لنستعد هنا لسماع الاعتراض التالي : «اذا كان المتشككون المحنكون يقرون هم انفسهم بأن التوكيدات الدينية لا سبيل الى دحضها وتفنيدها بواسطة العقل ، فلماذا لا يجوز لي ان أؤمن بها ما دامت حجج كثيرة تؤيدها : التقاليد ، قبول الناس بها على عمومهم ، وكل ما تنطوي عليه من عزاء للنفس ؟» .

– بالفعل ، لماذا لا ؟ فكما انه لا يمكن ان يُرغم اي شخص على الايمان ، كذلك لا يمكن ان يُرغم اي شخص على عدم الايمان ، ولكن لا يخدعن احد نفسه بتصوره انه يسلك بذلك طريق التفكير الصحيح . فلئن كانت هناك حجة يمكن وصفها فعلا بأنها حيلة وباب للتخلص ، فهي بالضبط تلك الحجة . ان الجهل جهل . ولا يجوز لاحد ان يتصور انه لن تترتب عليه اي نتيجة البتة . وما من انسان عاقل سيتصرف بمثل هذه الخفة في مجالات اخرى ، كما انه لن يكتفي بمثل تلك المبررات الواهية لما قد يتخذه من أحكام ومواقف ؛ وهو لا يبيح لنفسه مثل ذلك الموقف الا في أسمى الامور وأعظمها قدسية . وفي الواقع ، ان جهوده هذه لا غرض لها سوى ان يغر نفسه ويغر الآخرين بأنه لا يزال متمسكا بالدين بقوة ، مع انه نفض يديه منه في الحقيقة منذ زمن بعيد . والحق انه عندما

يكون الدين هو المطروح على بساط البحث ، تجد الناس يقترفون كل ضروب الكذب والحطة الفكريين . فالفلاسفة يتوسعون في معنى الكلمات حتى لا تعود تحتفظ بشيء من دلالتها الاصلية ؛ فتراهم يرجعون الله الى تجريد مبهم يبتدعونه لاستعمالهم الخاص، ويصورون انفسهم تارة تأليهيين (١) ، وطورا مؤمنين امام الكون. بل قد يصور لهم الغرور انهم قد توصلوا الى تصور لله أسمى وأرفع بكثير ، واصفى وانقى بما لا يقاس ، وهذا بالرغم من ان إلههم لا يعدو ان يكون ظلا لا قوام له ، وخلواً من اي اثر من الشخصية القوية كما يرسمها المذهب الديني . ولا يزال النقاد يصرون على اطلاق صفة «التدين العميق» على كل انسان يقر بما يراوده من شعور بتفاهة الانسان وبالعجز البشري في مواجهة الكون ، وهذا بالرغم من ان جوهر التدين لا يقوم على ذلك الشعور ، وانما بالاحرى على المسعى الذي يعقبه ويتفرع منه ، اي رد فعل الانسان على ذلك الشعور في محاولة لاتقائه والتحصن ضده . اما من لا يتوغل الى ابعد من ذلك ، اما من يسلم بكل تواضع بالدور الضئيل الذي يلعبه الانسان في فسيح الكون ، فهو بالاحرى لا متدين بأصدق معاني الكلمة .

ان اتخاذ موقف مع او ضد قيمة المذاهب الدينية من حيث الصحة والحقيقة لا يدخل في نطاق هذه الدراسة . يكفينا اننا تعرفناها بصفتها اوهاما في طبيعتها السيكولوجية . لكن ليس لنا ان نخفي ان هذا الاكتشاف يؤثر عميق التأثير على موقفنا من المسألة التي لا بد ان تبدو للكثيرين على انها اهم المسائل اطلاقا . اننا نعرف على وجه التقريب في اي عصر وعن اي ضرب من الناس ولدت المذاهب الدينية . واذا علمنا ايضا الدافع الكامن وراء

---

١ – التأليهيون هم من يقرون بوجود الله وينفون في الوقت نفسه الوحي.
– م –

ظهورها ، يكون قد طرا تبدل مرموق على الوجهة التي يجب ان ينظر منها الى المشكلة الدينية . ولسوف نقول : انه لجميل ورائع حقا ان يكون هناك إله فاطر الكون وعناية الهية رؤوف ونظام اخلاقي للكون وحياة ثانية ، لكن من المثير للفضول فعلا ان يكون هذا كله هو بالتحديد وبالضبط ما يمكننا ان نتمناه لانفسنا . والاغرب من ذلك ايضا ان اسلافنا ، الذين كانوا يئنون تحت نير البؤس والجهل والعبودية ، قد امكن لهم ان يتوصلوا الى حل جميع معضلات الكون والغازه الصعبة تلك .

- ٧ -

بمجرد تسليمنا بكون المذاهب الدينية اوهاما ، ينطرح سؤال جديد : اليست من طبيعة مماثلة ايضا بعض المكتسبات الثقافية الاخرى التي تحظى بعالي تقديرنا والتي لا نتأبى ان تسيطر على حياتنا ؟ افلا ينبغي ان ننعت المبادىء الموجهة لمؤسساتنا السياسية بأنها اوهام هي الاخرى ؟ والعلاقات بين الجنسين في قلب حضارتنا ، الا يعكرها وهم ايروسي او سلسلة من الاوهام الإيروسية ؟ بل لن نتردد ، بمجرد ان تستيقظ شكوكنا ، في ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : هل هناك اساس من الصحة لثقتنا بقدرتنا على اكتشاف بعض جوانب الواقع الخارجي بالاعتماد على الملاحظة والتفكير والمناهج العلمية ؟ الحق انه لا يجوز لاي شيء ان يمنعنا من تطبيق الملاحظة على طبيعتنا بالذات ، او من استخدام الفكر لنقد الفكر ذاته . هنا تنفتح امامنا جملة من التقصيات والمباحث ، ستكون نتيجتها حاسمة في اشادة «تصور للعالم» . ويحدثنا قلبنا ، علاوة على ذلك ، بأن تعبنا لن يضيع سدى في هذه الحال ، وبأنه سيأتينا بتبرير ، جزئي على الاقل ، لما نشتبه به اشتباها . لكن كاتب هذه الصفحات لا يستشعر في

نفسه القدرة على التصدي لمثل هذه المهمة الواسعة ، ويـــرى بالتالي نفسه مكرها على ان يحد عمله بدراسة واحد فقط من تلك الاوهام : الوهم الديني .

بيد ان خصمنا يرفع هنا عقيرته ليهيب بنا ان قفوا ، ويدعونا الى تقديم تفسير لفعلتنا الذميمه : «ان الاهتمام بعلم الآثار اهتمام يحمد عليه المرء بدون ادنى ريب . لكن لا يجوز له ان يجــري تنقيبات اثرية اذا كانت الحفريات تقوض دعائم مساكن الاحياء ، مما يهددها بأن تتداعى وتنهار وتدفن ساكنيها تحت انقاضها . كذلك ليست المذاهب الدينية موضوعا يستعرض فيه المرء عضلاته الفكرية ، مثله مثل اي موضوع آخر . فعلى اساس هذه المذاهب تقوم حضارتنا ، وشرط بقاء المجتمع الانساني ان تؤمن غالبية الناس بها . ولو ادخلنا في اذهان الناس انه لا وجود لا إله عادل وفائق القوة ، ولا لنظام إلهي للكون ، ولا لحياة ثانية ، لأحسوا للحال بأنهم معفون من كل التزام بالامتثال لقوانين الحضـــارة واتباعها . ولو رُفع كل تحظير ، وحرر الفرد من كل خوف، لاطلق الانسان العنان لغرائزه اللااجتماعية ، الانانية ، ولسعى الى فرض سلطانه وسيطرته . وبذلك ستعود الى الظهور الفوضى التـــي توصلنا الى وضع حد لها بعمل حضاري تمديني استغرق آلاف السنوات . وحتى لو كنا نعلم ونستطيع ان نثبت ان الدين لا يضم الحقيقة بين جناحيه ، لكان واجبا علينا ان نلزم الصمت حول ذلك وان نسلك المسلك الذي تطالبنا به فلسفة «كما لو أن» . وهذا لصالح بقاء الجميع واستمرارهم ! ثم ان هذا المشروع ، فضلا عن الخطر الذي يحف به ، ينطوي على قسوة مجانية لا مبرر لها . فالعديد من الآدميين يجدون في مذاهب الدين عزاءهـم اليتيم ، وما كانوا ليتحملوا الحياة لولا هذا الغوث . وانت تريد ان تسحب من تحت اقدامهم هذا السند من دون ان يكون لديك شيء افضل تقدمه لهم بالمقابل . نحن نوافقك على ان العلم لم ينجـــز

شيئا كبيرا حتى الان ، ولكن حتى لو حقق تقدما اوسع بكثير لما كفى البشر ولما سد حاجتهم . فللانسان حاجات ملحة اخرى لا يستطيع العلم البارد ان يروي غلتهم اليها ، وانه لمن المستغرب حقا ــ بل انها ذروة انعدام المنطق ، بصريح العبارة ــ ان نرى عالم نفس شدد على الدوام على مدى ثانوية المرتبة التي يحتلها العقل في حياة الانسان بالمقارنة مع الحياة الغريزية، اقول : من المستغرب حقا ان نرى عالم النفس هذا يبذل جل طاقته لينتزع من البشر تلبية ثمينة لرغائبهم ويسعى الى ان يعوضهم عنها بزاد فكري» .

ــ الا ما اكثرها من اتهامات في دفعة واحدة ! ومع ذلك ، انا على استعداد للرد عليها جميعا ، وحتى للدفاع عن الراي القائل ان الحضارة تعرض نفسها بتمسكها بموقفها الراهن من الديـــن لخطر اكبر من ذاك الذي تعرض نفسها له بعدولها وإقلاعها عنه . لكنني لا ادري من اين ابدا الاجابة .

لعلي سأبدأ بالتوكيد انني انا نفسي أعتبر مشروعي غير مؤذ ولا يترتب عليه من خطر . ولست انا الذي يبالغ في اهمية العقل هذه المرة . فاذا كان البشر هم فعلا كما يصفهم خصومي ــ وليس لي ان اناقضهم ــ فليس ثمة من خطر اذا تخلى واحد من الاتقياء الورعين عن ايمانه بعد ان تكون حججي قد أفحمته وسدت عليه السبل . ثم هل قلت شيئا غير ما قاله رجال آخرون ، اهل للثقة اكثر مني ، وغير ما قالوه بصورة اكمل واقوى وافصح وابلغ ؟ واسماء هؤلاء الرجال معروفة لدى الجميع ؛ وانا لن أسميهم لانني لا اريد ان يبدو عليّ انني اضع نفسي في مصافهم واعتبر ذاتي واحدا منهم . وقد اكتفيت ــ وهذا هو الجانب الوحيد الجديد في عرضي ــ بأن أضفت الى نقد المتقدمين العظام عليّ بعض الاسس السيكولوجية . ولا يجوز لنا في هذه الحال ان نتوقع ان تنجز هذه الاضافة وحدها ما عجزت عن تحقيقه المحاولات السابقة . ولا شك في انه من حق السائل ان يسألني لماذا اكتب امورا تبدو

لي لا جدواها مؤكدة . لكننا سنعود الى هذه النقطة في ما بعد .

ان الانسان الوحيد الذي يمكن ان يلحق به نشر هذا الكتيب ضررا هو انا نفسي . فأنا اتهيأ من الان لسماع بغيض اللوم ، وسوف اجد من يتهمني بالسطحية وبضيق الافق وبانعدام المثالية وعدم القدرة على تفهم مصالح الانسانية العليا . لكن هـذه التصورات ليست جديدة عليّ من جهة أولى . ومن الجهة الثانية: حين يكون المرء قد وضع نفسه ، منذ ريعان العمر، فوق استهجان معاصريه ، فأنى له ان يهتم لهذا الاستهجان بعد ان تقدم به العمر وطعن في السن وبات متأكدا من اقتراب الساعة التي لن يعود يتأثر فيها لا بمحاباة الناس ولا بسخطهم وعدم رضاهم عنه ؟ لقد كانت الحال تختلف في القرون المنصرمة : فقد كانت اشباه هذه الآراء تضمن لك يومئذ اختصار الحياة وتتيح لك فرصة قريبة للغاية لتكوين ملاحظات شخصية عن الحياة الثانية . بيد انني اكرر ان تلك الازمنة قد دالت وولت ، وان مثل هذه الكتابات لم تعد تشكل في أيامنا هذه خطرا على مؤلفها . وأقصىما يمكن ان يحدث هو ان يمنع نشر كتابك او ترجمته في هذا القطر او ذاك . وهذا سيحدث ، بالطبع وبالتحديد ، في البلدان التي لا تضع المستوى الرفيع لثقافتها موضع شك . بيد ان المرء حين يكون قد جعل من نفسه المحامي عن نكران الغرائز وعن الامتثال للاقدار ، فلا بد له ايضا من ان يعرف كيف يتحمل تلك المضرة .

وسأطرح عندئذ السؤال التالي : الا يمكن على كل حال ان يلحق نشر هذه الدراسة الضرر بأحد ما ؟ اجل ، ولكـن ليس بشخص ما ، وانما بقضية ما : قضية التحليل النفسي . فليس لي ان انكر ان التحليل النفسي هو من ابتكاري ، وقد اثار حتى الان الريبة وسوء النية على نطاق واسع ؛ فاذا ما تقدمت الان بآراء مغيظة ومثيرة للنفور فلن يكون أسهل على الناس من تحويل مشاعرهم عن شخصي الى التحليل النفسي . وسوف يقول

القائلون : ها قد بات في مقدورنا الان ان نرى الى اين يقود التحليل النفسي . فقد سقط القناع : انه يقود الى نفي الله وكل مثل اعلى اخلاقي ، مثلما كنا نشتبه بذلك دائما . وحتى يحول انصاره بيننا وبين التنبه لذلك جعلونا نعتقد ان التحليل النفسي ليس «تصورا للكون» ولا يمكن البتة ان يصبح كذلك .

ان كل هذه اللجبة ستحز في نفسـي حقا بسبب كثرة المتعاونين معي ، ومن بينهم عدد محدد لا يشاطرني البتة موقفي تجاه المشكلة الدينية . بيد انه سبق للتحليل النفسي ان صمد للكثير من العواصف ، ولا بد له من ان يمر بهذه العاصفة ايضا .

ان التحليل النفسي لهو في الواقع منهج للبحث والتقصي ، اداة حيادية شبيهة ، اذا جاز التعبير ، بالحساب اللانهائي الصفر. فاذا توصل عالم من علماء الفيزياء ، بفضل هذا الحساب ، الى ان يكتشف ان الارض ستفنى وتضمحل في أجل محدد ، فان واحدنا سيتردد في عزو ميول تدميرية الى الحساب نفسه ، وبالتالي في تحظيره وتحريمه . وليس في ما قلته عن القيمة الفعلية للدين ذرة واحدة كانت بحاجة الى التحليل النفسي ؛ فقد سبقني كثيرون غيري الى قوله قبل أن يظهر التحليل النفسي الى حيز الوجود بحقبة طويلة . واذا امكن ، من خلال تطبيق المناهج التحليلية النفسية ، الوصول الى حجة جديدة ضد صدق الدين ، فالغلطة في هذه الحال ، واأسفاه ، غلطته . بيد ان الذائدين عن حياض الدين سيكون لهم حق مماثل في استخدام التحليل النفسي لتقييم الاهمية العاطفية للمذهب الديني بحق قيمتها .

سأتابع مرافعتي : لقد أدى الدين بلا جدال خدمات جلى للحضارة، وأسهم واسع الاسهام في ترويض الغرائز اللااجتماعية، لكن ما امكن له ان يغذ السير بعيدا الى حد كاف في هذه الوجهة. فقد حكم المجتمعات البشرية طوال الوف من السنين ، وأتيح له الوقت الكافي لاظهار ما هو قادر على تحقيقه . ولو حالفه التوفيق

في توفير اسباب السعادة لغالبية البشر ، وفي تعزيتهم والمؤالفة بينهم وبين الحياة ، وفي تحويلهم الى ركائز للثقافة والحضارة ، لما عنّ ببال احد ان يتطلع الى تغيير في وضع الاشياء الراهن .

لكن ماذا نرى بدلا من ذلك؟ ثمة عدد هائل من الناس مستاؤون ومتذمرون من الحضارة ، تاعسون بسببها ، لا يحسون بها الا كنير ينبغي خلعه . وهؤلاء الناس يبذلون ما في وسعهم لتغيير هذه الحضارة ، او هم يشتطون الى ابعد من ذلك بكثير في عدائهم لها فلا تعود بهم رغبة لا في السماع عنها ولا في السماع عن تقييد الغرائز ولجمها .

قد يعترض علينا معترض هنا بأن هذا الوضع ناشىء بالاحرى عن فقدان الدين لجزء من تأثيره على الجموع ، وعلى وجه الدقة كنتيجة مؤسفة للتقدم العلمي . ونحن سنأخذ علما بالمناسبة بهذا الاقرار وبالاسباب المبني عليها لكي نستخدمه فيما بعد في اثبات قصدنا ، لكن الاعتراض نفسه لا يقوم على اساس من الصحة .

فمن المشكوك فيه ان يكون البشر قد عرفوا في مجملهم ، في العهد الذي كان الدين يسود فيه بلا منازع ، سعادة اكبر من تلك التي يعرفونها اليوم ؛ وعلى كل حال ما كانوا ، بالتأكيد ، اكثر اخلاقية . فقد برعوا على الدوام في تحويل الأحكام الدينية الى ممارسات خارجية ، خارجين بالتالي على مقاصد هذه التعاليم . ولم يعدم الكهنة ، الذين كانت وظيفتهم السهر على التقيد بالدين، وسيلة للتواطؤ معهم على نحو ما . وكانت رأفة الله تشل عدالته. وكان الناس يرتكبون المعاصي ، ثم يقدمون الاضاحي او يقرعون السن ندما وتوبة ، ويمسون من ثم احرارا في ارتكاب المعاصي من جديد . وقد ارتقى التصوف الروسي اخيرا الى التصور التالي: ان الخطيئة ضرورية لا غنى عنها اذا اراد المرء الاستمتاع بكل بركات النعمة الإلهية ، ومن هنا فان الخطيئة عمل محبب للرب في خاتمة المطاف . معلوم اذن للجميع ان الكهنة ما وجدوا سبيلا الى حمل الجموع على الاستمرار في الانصياع للدين الا على حساب

تلك التنازلات الكبرى لصالح غرائز الآدميين . وقد التزموا هذه الحدود ولم يتخطوها : فالله هو وحده القوي الرؤوف ، والانسان ضعيف وخاطىء . وفي كل زمن وعصر ، لاقت اللاأخلاقية في الدين من الدعم قدرا يوازي ما لاقته الاخلاقية. واذا لم يكن ما انجزه الدين ، لاسعاد البشر وتكييفهم مع الحضارة وتمكينهم من السيطرة الاخلاقية على انفسهم ، ذا قيمة اكبر ، فعندئذ ينطرح السؤال : الم نبالغ في ضرورة الدين للبشر ، وهل يحق لنا ان نشيد عليه متطلبات حضارتنا ؟

الا لنمعن النظر في الوضع الراهن الذي يستحيل التعامي عنه . لقد طرق آذاننا الاقرار بأن الدين لم يعد له اليوم على البشر مثل ما كان له من تأثير في الماضي . (المقصود هنا الحضارة الاوروبية المسيحية) . وهو لم يعد له مثل ذلك التأثير ، لا لان الوعود التي اعطاها للبشر قد بهتت وخبت سطوعا ، وانما لان هذه الوعود تبدو الان أقل مدعاة للايمان . ولنسلم بالامر : ان علة هذا التطور هي تعزز الروح العلمية لدى الشرائح العليا من المجتمع الانساني (ولعلها ليست العلة الوحيدة) . فقد أعمل النقد رويدا رويدا معول الهدم والتفتيت في قوة ثبوتية الوثائق الدينية ، وأماطت العلوم الطبيعية اللثام عما تنطوي عليه من أخطاء ، وسلطت مناهج الدراسة المقارنة الضوء على التشابه المحتوم القائم بين الافكار الدينية التي نجلها ونوقرها وبين الابداعات الفكرية للعصور والشعوب البدائية .

يتفرع عن الروح النقدية موقف محدد تجاه مشكلات هذا العالم . وقد تقف هذه الروح امام المشكلات الدينية مترددة لهنيهة من الزمن ، ثم لا تلبث ان تحزم امرها على اجتياز العتبة هنا ايضا . وهذه الجهود لا تعرف توقفا : فكلما زاد عدد الناس الذين يمكن لهم ان يطالوا كنوز حضارتنا ، اتسع نطاق هجران الايمان الديني . وتتهاوى ، اول ما تتهاوى ، تعابير الايمان المحالة ،

البالية ، المتقادم عليها العهد ، ثم تلحق بها توكيداته الجوهرية . والاميركان ، الذين حرضوا على محاكمة القرود في مدينة دايتون (١) ، هم وحدهم الذين دللوا على منطق وتماسك في افعالهم . اما في كل مكان آخر فكان الانتقال المحتم الذي لا راد له يتم بواسطة أنصاف التدابير واللف والدوران والمراءاة .

وليس لنا ان نتوجس خيفة على الحضارة من جانب الرجال المثقفين والشغيلة الفكريين ؛ اذ سوف تحل لديهم ، بدون لغط او لجبة ، محل الدوافع ذات الطابع الديني المستوجبة لمسلك حضاري ، دوافع اخرى ذات طابع دنيوي ؛ ثم انهم في غالبيتهم رسل ثقافة وحضارة . ولكن ليس كذلك هو شأن جموع الأميين والمضطهَدين الذين لديهم اسباب موجبة ليكونوا اعداء للحضارة . وكل شيء سيسير على ما يرام ما داموا لا يعلمون ان الايمان بالله قد انتهى وتلاشى . ولكن لا مفر من ان يعلموا بذلك حتى ولو لم يُنشر هذا النص. وهم على أهبة الاستعداد للتسليم بنتائج التفكير العلمي والقبول بها ، من دون ان يحدث لديهم بالمقابل التطور الذي يحدثه الفكر العلمي في العقل البشري . افلا يكمن الخطر ، والحالة هذه، في ان تبادر تلك الجموع، مدفوعة بعدائها للثقافة، الى مهاجمة النقطة الضعيفة التي اكتشفتها في طاغيتها ؟ ففي السابق لم يكن مباحا للانسان ان يقتل قريبه ، وذلك لأن الإله الرحيم الرؤوف قد حرم القتل في هذه الحياة كما في حياة الآخرة وسيعاقب مرتكبه صارم العقاب . لكن هوذا الانسان يعلم الان انه لا وجود لإله رحيم رؤوف ، وأنه ليس له ان يخشى انتقامه . وهوذا بالتالي يقتل قريبه من دون ان يؤنبه ضمير ، ولا يمكن لغير القوة الدنيوية ان تمنعه من القتل . وهنا لا يعود من

---

١ – وهي المحاكمة التي مثل فيها استاذ جامعي لانه درّس مذهب النشوء والارتقاء . –م–

خيار الا بين واحد من امرين : اما ان تلجم وتكبح بالقوة تلك الجموع الخطرة وأن تحرم بكل التدقيق اللازم من كل فرصة لليقظة الفكرية ، واما ان يعاد النظر قلبا وقالبا في علاقات الحضارة بالدين .

- ٨ -

يحق لنا ان نتوقع ان تنفيذ المشروع الاخير هذا لن يلاقي صعوبات كأداء . صحيح ان ذلك قد يقتضي التخلي عن شيء ما، لكن قد يكون الربح اكبر من الخسارة، وقد يمكن تدارك خطر عظيم ودرؤه . بيد ان الخوف يستولي على النفوس وكأن الحضارة ستتعرض ، بفعل أمثال تلك التدابير، الى خطر اكبر وأفدح. حين قطع القديس بونيفاسيوس شجرة الساكسونيين المقدسة ، انتظر الحاضرون ان يقع حدث رهيب انتقاما من الجرم العظيم . لكن لم يقع شيء ، وتقبل الساكسونيون المعمودية .

مما لا شك فيه ان الحضارة حرمت على الانسان ان يقتل قريبه أذا ابغضه او ضايقه او طمع في املاكه ، حرصا منها على حياة البشر المشتركة التي كانت ستستحيل لولا ذلك التحريم . فالقاتل كان لا بد ، والحالة تلك ، ان يجلب على نفسه انتقام اقارب ضحيته ، والحسد الاصم من جانب الآخرين الذين يمور في نفوسهم ميل باطني مماثل الى اتيان عمل العنف الذي أتاه . وما كان له في هذه الحال ان يستمتع طويلا بانتقامه او بغنيمته ، بل ستكون جميع الاحتمالات قائمة لتعرضه للقتل بدوره . وحتى على

فرض انه توصل الى حماية نفسه ، بفضل قوة وحذر خارقين ، من خصم اعزل ، فانه سيسقط صريعا ولا بد حين يتحالف ويتآمر ضده عدد كبير من الخصوم ولو كانوا أضعف منه . وحتى على فرض ان هذه المؤامرة لم تحدث ، فان القتل سيعقب القتل الى ما لا نهاية الى ان يفني الناس بعضهم بعضا في خاتمة المطاف . وبذلك ستقوم بين الافراد الحالة نفسها التي لا تزال قائمة الى اليوم بين ألاسر في كورسيكا ، والتي لم تعد قائمة في اي مكان آخر الا بين الامم . وانعدام الامن وتعرض حياة الفرد لنفس الخطر الذي تتعرض له حياة الجميع يجمعان شمل البشر في مجتمع يحرم على الفرد ان يقتل ، لكنه يحتفظ لنفسه بالحق ، باسم هذا المجتمع عينه ، في قتل من ينتهك ذلك التحريم . وعندئذ تكون العدالة والعقوبة .

بيد اننا لا نصارح الآخرين بهذا الاساس العقلاني لتحظير القتل : وانما نؤكد لهم ان الله هو الذي قرره . ونحن نسمح لانفسنا بأن نتكهن بنيّاته ونخمن مقاصده ، ونجد انه هو الآخر لا يريد ان يفني البشر بعضهم بعضا. ونحن بعملنا هذا نلبس التحظير الحضاري رداء من الأبهة والعظمة ، لكننا نجازف بالتالي بأن يغدو التقيد به مرهونا بالايمان بالله . اما اذا اقلعنا عن هذا المسعى ، واما اذا لم نعزُ الى الله ارادتنا الخاصة ، وأما اذا اكتفينا اخيرا باقامة التحظير الحضاري على اساس دوافع اجتماعية ، فاننا نكون قد تخلينا في هذه الحال عن طابعه الحرمي لكننا نكون ايضا قد جعلناه بمنأى عن اي خطر . وهناك ، علاوة على ذلك ، مزية اخرى . فمن طريق نوع من العدوى والانتشار امتد الطابع ، طابع الحرمي ، طابع الماوراء ، اذا حاز التعبير ، من بعض التحظيرات الهامة القليلة الى جميع المؤسسات والقوانين والشرائع الحضارية الاخرى . والهالة لا تناسب كثيرا في أحوال عديدة هذه الاخيرة؛ اذ هي لا تنفي بعضها بعضا بإملائها تدابير واجراءات متناقضة تبعا للزمان والمكان فحسب ، بل تحمل جميعها ايضا بصمة اللاكمال

البشري . وفي ميسورنا ان نميز فيها بسهولة ما ينجم منها عن مخاوف وهواجس غير بعيدة النظر هي محض تعبير عن مصالح ضيقة وحقيرة ، وما ينجم منها ايضا عن مقدمات منطقية غير مستوفية للشروط . ومن هنا ، لا محيص عن اخضاعها للنقد ، وهذا النقد يقلص بنسب مؤسفة الاحترام الواجب لمقتضيات ثقافية وحضارية اخرى أمتن وافضل تبريرا . ولما كانت مهمة دقيقة وحساسة هي مهمة الفصل والترجيح والاختيار بين ما يأمر به الله نفسه وما يصدر عن سلطة برلمان كلي القدرة او قضاء اعلى، فسيكون من الافضل بلا نقاش او جدال ان ندع الله بعيدا عن المسألة كلها وأن نقر بصدق وصراحة بالاصل البشري البحت لجميع مؤسسات الثقافة وتعاليم الحضارة . وما ان يسقط عن هذه القوانين والشرائع ادعاؤها لنفسها منشأ مقدسا ، حتى تتحرر كذلك من تشنجها وثباتها غير القابل للتبديل . عندئذ ستتوفر للناس المقدرة على ان يفهموا ان تلك القوانين والشرائع لم توجد للجمهم وكبحهم ، بل لخيرهم وصالحهم ، وسيقفون منها بالتالي موقفا اكثر وداً ، وبدلا من التطلع الى الغائها سيتطلعون الى تحسينها فقط . ولو تم ذلك لكان بمثابة تقدم عظيم على الطريق التي تقود بني الانسان الى التآلف مع الضغط الذي تمارسه عليهم الحضارة .

لكن هنا تتدخل شبهة مفاجئة لتشوش علينا مرافعتنا ودفاعنا عن الاساس العقلاني المحض للأحكام الثقافية والمقتضيات الحضارية ، اي ارجاعنا اياها الى الضرورة الاجتماعية . فقد اخترنا كمثال نشأة تحظير القتل . فهل يتطابق العرض الذي قدمناه والحقيقة التاريخية ؟ نخشى ان يكون الجواب بالسلب ، والدلائل تشير الى ان عرضنا لا يعدو ان يكون انشاء عقلانيا . وقد درسنا بواسطة التحليل النفسي هذه النقطة المحددة من تاريخ الحضارة ، ووجدنا انفسنا مكرهين ، على ضوء تلك الدراسة ، على القول بأن الامور جرت على غير ذلك النحو في الواقع .

فالدوافع العقلية الصرفة لا كبير وزن لها ، حتى لدى الانسان المعاصر ، في مواجهة الغرائز والاهواء . فما كان أقل وزنها والحالة هذه لدى الحيوان البشري في الازمنة البدائية ! ولعل ذرية هذا الحيوان كانوا سيستمرون الى اليوم في افناء بعضهم بعضا بلا رادع ولا مانع لو لم تؤد احدى جرائم القتل تلك ــ قتل الاب البدائي ــ الى رد فعل انفعالي جامح ومثقل بالنتائج . وعن رد الفعل هذا تفرعت الوصية : لا تقتل ، تلك الوصية التي كانت تقتصر في ظل الطوطمية على الحيوان البديل عن الاب ، ثم اتسع نطاقها فيما بعد لتشمل الغير ، وهي لا تزال الى اليوم عرضة للانتهاك من حين الى آخر .

بيد ان ذلك الاب البدائي ، طبقا لاستنتاجات ليس ثمة ما يوجب عليّ ان أعيد عرضها هنا ، كان بعيم الله (١) ، النموذج الذي احتذته الاجيال اللاحقة في تشكيلها للوجه الإلهي . والتفسير الديني لا يجانب الصواب حتى الان : فقد كان لله دور فعلي في نشأة ذلك التحظير ، وعن تدخله لا عن فهم الضرورات الاجتماعية رأى النور . وواقعة عزو الارادة الانسانية الى الله واقعة مبررة تماما ، ولقد كان بنو الانسان على علم بها بالفعل : فقد كانوا قد تخلصوا من الاب بالعنف ، وكرد فعل منهم على فعلتهم المجرمة قرروا ان يحترموا مذ ذاك فصاعدا ارادته وان يجلوا مشيئته . المذهب الديني ينبئنا اذن بالحقيقة التاريخية ، وان في شكل محول ومقنع . وعرضنا العقلاني ، على العكس من ذلك ، يكذبها.

ها نحنذا قد بتنا على بينة من امرنا الان : ان تراث الافكار الدينية لا ينطوي على تحقيقات لرغبات فحسب ، بل ايضا على تذكرات تاريخية هامة . فما اعظم وما اوسع السلطان الذي

١ ــ من المكن الرجوع هنا الى كتاب فرويد : «موسى والتوحيد» الصادر بترجمتنا من دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٣ . ــم ــ

سيتقلده الدين بنتيجة هذا التعاون بين الماضي والمستقبل ! لكن لعلنا سنعاين ، بفضل تشابه يرد هنا الى ذهننا ، بزوغ ضوء جديد ينير تلك المواد ويوضح ما غمض منها . صحيح انه ليس من المستحسن نقل مفاهيم من التربة التي نمت فيها الى تربة نائية ، ولكن لا بد لنا هنا من ان نوضح ما كنه ذلك التوافق . نحن نعلم ان الطفل البشري لا يستطيع ان يكمل تطوره وارتقاءه نحو الحضارة من دون ان يمر بمرحلة عصابية مستفحلة بقدر او بآخر . وهذا يتأتى من ان الطفل عاجز عن ان يقمع بعمل ذهني عقلي ذلك القدر الكبير من الدوافع الغريزية الكامن فيه ، وهي دوافع لن تكون له بها حاجة فيما بعد بوصفه متمدينا ومتحضرا ، وعليه من ثم ان يتغلب عليها ويقهرها بأفعال كبتية يختفي وراءها عادة باعث خوف. ومعظم ضروب العصاب الطفلي هذه تختفي تلقائيا حين يشب الطفل عن الطوق . وفي مقدورنا كذلك ان نفترض ان البشرية تمر بجملتها ، اثناء تطورها وارتقائها ، بحالات مشابهة للعصاب (وللاسباب ذاتها) . فما كان للبشرية ، في عصور الجهل والضعف الفكري التي مرت بها في البداية ، ان تتخلى عن الغرائز بالمقدار الذي تستوجبه حياة البشر المشتركة الا بفضل قوى وجدانية خالصة . وتلبث عصارة هذه المساعي والجهود ، المشابهة للكبت، والتي جرت في عصور ما قبل التاريخ ، تلبث على قيد الوجود لحقبة مديدة من الزمن بوصفها جزءا لا يتجزأ من الحضارة . هكذا يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية الوسواسي العام ، وبأنه ينبثق ، مثله مثل عصاب الطفل ، عن عقدة اوديب ، عن علاقات الطفل بالاب . وانطلاقا من هذه التصورات ، يمكننا أن نتوقع ان يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا راد لها، كما يمكننا ان نحدس بأننا نمر في الساعة الراهنة بهذه المرحلة من التطور على وجه التحديد .

بناء عليه ، يتوجب ان يكون موقفنا حيال هذه الظاهرة كموقف المربي المتفهم الذي لا يعارض التطور الجديد الذي يواجهه،

بل يسعى على العكس الى تشجيعه ويبذل ما في وسعه كي يلطف، لا اكثر ، من حدة العنف الذي يتم به . وهذا التشابه لا يستوعب بالاصل ماهية الدين . فلئن كان الدين يشتمل من جهة اولى على قيود ذات صفة قسرية لا نجد نظيرا لها الا في ما يشتمل عليه عصاب الفرد الوسواسي ، فانه يستتبع من الجهة الثانية منظومة أوهام تخلقها الرغبة ونافية للواقع ، لا نجد نظيرا لها ، في حالة العزل ، الا في الذهان الهلسي (١) الذي هو حالة غبطة من حالات الخبل العقلي . صحيح ان المسألة هنا مسألة مقارنات ، ولكنها مقارنات تحدونا وتسهل علينا فهم الظاهرة الاجتماعية . والحق ان علم الامراض الفردي لا يقدم لنا معادلا دقيقا .

كثيرا ما يلاحظ الملاحظون (انظر بهذا الصدد اعمالي ، وبوجه خاص اعمال ث. رايك) ان التشابه بين الدين وبين العصاب الوسواسي قائم حتى في التفاصيل ، وانه لولا هذا التشابه لما امكن فهم العديد من خصائص تكوين الاديان وأشكاله . وبالتوافق مع هذا كله نجد المؤمن الحق في منجى ، الى حد كبير ، من خطر بعض الامراض العصابية ؛ فارتضاؤه بالعصاب الكوني يعفيه من مهمة اصطناع عصاب شخصي لحسابه الخاص .

ان الاعتراف بما لبعض المذاهب الدينية من قيمة تاريخية يزيد في مقدار الاحترام الذي نسلم به لها ، لكنه لا ينال البتة من قيمة ما نفترضه من وجوب اقصائها واستبعادها عن تعليل الأحكام الثقافية والمقتضيات الحضارية . بل على العكس من ذلك تماما ! فقد اتاحت لنا تلك النضالات التاريخية ان نعقل ، ان جاز التعبير ، المعتقدات الدينية بوصفها مخلفات عصابية ، ومن المباح لنا الان ان نقول انه قد دقت في اغلب الظن ساعة استبدال نتائج الكبت بنتائج العمل الذهني العقلي ـ تماما كما يحدث في

---

١ ـ نسبة الى الهلوسة .

المعالجة النفسية التحليلية للعصابيين . وفي مستطاعنا ان نتكهن بأن هذا التصحيح للفرائض الثقافية والحضارية لن يتوقف عند تجريدها مما تتسم به من عظمة وابهة وقداسة ، بل ان المراجعة العامة لهذه الفرائض لا بد ان تؤدي الى الغاء الكثير منها . وليس لنا ان نأسف على ذلك . فالمشكلة المطروحة علينا ، مشكلة المؤالفة بين البشر والحضارة ، ستجد في ذلك حلها الى حد كبير. كذلك لا يجوز لنا ان نأسف على تخلينا عن الحقيقة التاريخية اذ نقبل بالتعليل العقلاني للفرائض الحضارية . فالحقائق التي تنطوي عليها المذاهب الدينية مشوهة ومموهة الى حد لا يستطيع معه البشر في غالبيتهم ان يتعرفوا فيها الحقيقة. وهذه الحالة مشابهة لتلك التي تقوم حين نروي لطفل ان اللقلق هو الذي يأتي بالمواليد الجدد . فهنا ايضا نقول الحقيقة في إهاب من تنكير رمزي ، لاننا نعلم ماذا يعني الطير الكبير . لكن الطفل لا يعلم ذلك ، وهو لا يسمع سوى تشويه الحقيقة ، ويعتبر نفسه مخدوعا ، ونحن نعلم مدى ريبته بالاشخاص الكبار وما يتفرع عن هذا الشعور من طبع مشاكس (روح المناقضة ؟) . وقد تكوّن لدينا الاقتناع واليقين بأنه من الافضل ان نمتنع عن مثل ذلك التنكير الرمزي للحقيقة ، والا نضن على الطفل بمعرفة حقيقة وضع الاشياء آخذين بعين الاعتبار درجة تطوره الفكري .

- ٩ -

«انك تبيح لنفسك تناقضات يصعب التوفيق بينها . فأنت تبدا بالتصريح بأن نصا كنصك عديم الخطر بالمرة . فما من احد سيسمح لمثل هذه الكتابات والمقالات ان تسلبه عقيدته الدينية . لكن لما كان في نيتك ايضا ان تشوش على الناس ايمانهم ، كما يتضح ذلك فيما بعد ، فمن حقنا ان نسألك : لماذا تنشر هذا الكتاب ؟ ثم انك تقر في موضع آخر بأنه من الخطر ، بل من الخطر الشديد ، ان يعلم انسان من الناس بأن الايمان بالله لم يعد قائما . فهو سيأبى مذ ذاك فصاعدا امتثالا لقوانين الحضارة بعد ان كان لها مطيعا منصاعا . وبالمقابل ، نجد ان محاجتك تقوم برمتها ، حين تقول انه من الخطر على الحضارة ان تبنى تلك القوانين على معللات دينية ، على الافتراض بأن المؤمن يمكن ان يصبح كافرا : والحال ان هذا تناقض مطلق .

« وانت تقع في تناقض آخر حين توافق ، من جهة اولى ، على ان الانسان لا يقوده عقله ، وانما تسيطر عليه أهواؤه ومتطلبات غرائزه ، وحين تستبدل ، من الجهة الثانية ، الاساس العاطفي لطاعته وانصياعه لمقتضيات الثقافة والحضارة بأساس عقلي .

الا فليفهم من له قدرة على الفهم ! اما انا فيخيل اليّ ان الامر لا يمكن ان يكون الا واحدا من الاثنين .

«وفضلا عن ذلك ، ألم يعلمك التاريخ شيئا ؟ فقد سبقت سالفا الى محاولة استبدال الدين بالعقل ، بل ان هذه المحاولة ارتدت طابعا رسميا ومفخما . انت تذكر ولا ريب الثورة الفرنسية وروبسبيير ؟ لكن تذكر ايضا ولا بد الطابع العرضي لتلك التجربة واخفاقها الذريع . وها هم يحاولونها الان من جديد في روسيا. وليس بنا حاجة الى التساؤل عما ستكونه النتيجة . ألا تعتقد انه لا بد من التسليم معنا بأن الانسان لا يستطيع استغناء عن الدين؟

«لقد قلت انت نفسك ان الدين هو اكثر من عصاب وسواسي. لكنك لم تعالج وجهه الآخر هذا . وقد كفاك ان بينت تشابهه مع العصاب . والعصاب لا بد من تحرير الناس منه ، ولكنك لا تهتم لما قد تخسره البشرية في الوقت نفسه بنتيجة ذلك» .

ـ لقد بدا عليّ وكأنني اتخبط في تناقضات ، وهذا بلا ريب لانني عالجت بسرعة وعجلة اكبر مما ينبغي مادة معقدة . وفي ميسورنا أن نتدارك ذلك الى حد ما . على انني ما زلت أصر على ان هذا النص غير مؤذ بالمرة من وجهة نظر معينة . فلن يسمح اي مؤمن لحججي او لاي حجج مشابهة ان تشوش عليه ايمانه . فالمؤمن مرتبط بجوهر دينه بروابط عاطفية . بيد ان هناك عددا كبيرا من الناس غير مؤمنين بالمعنى الحرفي نفسه . فهم لا يمتثلون لقوانين الحضارة الا لخوفهم من تهديدات الدين ، وهم سيظلون يخشون الدين ما داموا يعتقدون انه يؤلف جزءا من ذلك الواقع الذي يفرض عليهم تقييدات . وهؤلاء هم الذين يتخطون كل مانع ويحطمون كل قيد بمجرد ان يتجرؤوا على العدول عن الايمان بحقيقة الدين ، لكن ليست الحجج والبراهين العقلية هي التي تؤدي الى هذا الانعطاف لديهم . وهم لا يعودون يخشون الدين حين يتبينون ان غيرهم ايضا ما عاد يخشاه ، وانما عن هؤلاء الناس قلت انهم سيعلمون بأفول النفوذ الديني حتى اذا لم أنشر

هذا الكتيب .

لكني أعتقد انك تعزو انت نفسك اهمية اكبر الى التناقض الآخر الذي تلومني عليه . فما دام البشر لا يتأثرون كبير التأثر بالحجج العقلية ، وما دامت رغائبهم الغريزية تسيطر عليهم سيطرة كاملة ، فما الداعي لان ننتزع منهم وسيلة من وسائل تلبية غرائزهم ونتطلع الى استبدالها بحجج عقلية ؟ صحيح ان البشر فُطروا على هذا النحو ، لكنك نفسك تساءلت هل ثمة من ضرورة تفرض عليهم ان يكونوا كذلك ، وهل طبيعتهم الداخلية هي التي ترغمهم على ذلك ؟ هل في وسع عالم من علماء الانتروبولوجيا ان يقدم لنا الدليل على ان طبيعة الدماغ لدى شعب من الشعوب هي التي تحتم ان تسود لديه عادة تشويه رؤوس الاطفال منذ نعومة اظفارهم عن طريق احاطتها بالاطواق ؟ ألا تأمل مليا في التضاد المحزن القائم بين الذكاء المشع لطفل جيد الصحة وبين الضعف العقلي لراشد متوسط . فهل من رابع المستحيلات حقا ان تكون التربية الدينية على وجه التحديد هي العلة الاولى لذلك الضرب من الذبول والنحول ؟ أعتقد انه لا بد ان يمر وقت طويل قبل ان يشرع طفل من الاطفال بالاهتمام بالله وبأمور الغيب اذا لم يجد من يحدثه عنها في وقت مبكر . وقد تسلك الافكار التي سيكوّنها عن ذلك نفس الطرق التي سلكها أسلافه ، لكننا لا ندع هذا التطور يتم من تلقاء نفسه ، بل نفرض عليه المذاهب الدينية في سن لا تبيح له ان يعيرها اهتماما ولا تمكنه من استيعاب اهميتها. أفليس البندان الرئيسيان في المناهج التربوية الحالية تأخير النمو الجنسي لدى الطفل واخضاعه منذ نعومة أظفاره لسلطان الدين ؟ فهل من العجب في هذه الحال ان تكون المذاهب الدينية قد أضحت بالنسبة اليه منيعة غير قابلة للطعن ، يوم تتفتح لديه ملكة التفكير؟ وهل تعتقد على كل حال انه في صالح تطور الوظيفة الفكرية ان يسلط سيف التهديد بعذابات جهنم للحيلولة بين الفكر وبين

التطرق الى مسألة لها مثل تلك الاهمية العظيمَة ؟ والحق انه ليس لنا ان ندهش فوق الحد من الضعف الفكري لكل من يستطيع ان يقبل بلا نقد جميع الاباطيل التي تنطوي عليها المذاهب الدينية جميعا وأن يطبق عينيه ازاء ما تشتمل عليه من تناقضات . على اننا لا نملك وسيلة اخرى للسيطرة على غرائزنا غير عقلنا . فكيف لنا أن ننتظر ان يصل أناس ، واقعون اصلا تحت تأثير بعض محظرات التفكير ، الى ذلك المثل الاعلى الذي ينبغي ان يتحقق في علم النفس : أولوية العقل ؟ انت تعلم ولا بد ما تردده الالسن من طيبة خاطر من ان النساء يشكين بوجه عام من ضعف فكري ذي طبيعة «فيزيولوجية» ، اي ان ذكاءهن دون ذكاء الرجل . ان الواقعة في حد ذاتها قابلة للنقاش ، وتأويلها تحيط به الريَب والشبهات . بيد انه في ميسورنا ان نقول ، توكيدا للطبيعة الثانوية لهذا الضمور الفكري، ان النساء ما زلن يعانين منذ نعومة أظفارهن من قيد جلف قاسٍ يحظر عليهن إعمال فكرهن بالمشكلات التي قد تنال منهن اعظم الاهتمام : مشكلات الحياة الجنسية . وبالمقابل ، ما دام الرجل ، خلال سني حياته الاولى ، بمنأى عن الكف الذهني المرتبط بالجنس ، وان لم يتحرر من تأثير الكف الذهني الديني والكف المتفرع عنه : الكف الذهني «الولائي» تجاه الاهل والمربين ، فاننا لا نستطيع ان نقول حقا من هو في جوهره وواقعه .

بيد انني سأخفف قليلا من حماستي وسأسلم بأنه من الجائز انني لا أسعى انا نفسي الا وراء وهم . ولعل مفعول النهي الديني من التفكير ليس بالخطورة التي أصوره بها. ولعل الطبيعة الانسانية ستبقى على ما هي عليه الان حتى ولو لم تعد التربية منظمة على نحو يجبر الاطفال على الخضوع للنير الديني . لست ادري ، وليس في ميسوركم انتم ايضا ان تدروا . ففي ايامنا هذه لا تبدو مشكلات الحياة الكبرى هي وحدها غير قابلة للحل ، بل

يصعب ايضا البت في مسائل اوهى شأنا بكثير . بيد انكم ستقرون معي بأنه من حقنا ان نعلل النفس بكبير الامل فيما يتعلق بالمستقبل ؛ ولعله لا يزال علينا ان نكتشف كنزا قمينا بأن يغني حضارتنا ويثريها ، وثمة ما يغري هنا بالقيام بتجربة تربية غير دينية . واذا اخفقت المحاولة ، فسأكون مستعدا للتخلي عن كل اصلاح ، وللعودة الى الحكم السابق ذي الطبيعة الوصفية الخالصة القائل بأن الانسان مخلوق قليل الذكاء تسيطر عليه غرائزه .

وثمة نقطة أوافقك عليها كل الموافقة : فمن العبث الذي لا جدال فيه ان نتطلع الى الغاء الدين بالعنف على الفور ودفعة واحدة. فمثل هذا المشروع لن يكون له اولا اي حظ في النجاح . فلا الحجج ولا النواهي بقادرة على ان تجعل المؤمن يتخلى عن ايمانه. وحتى اذا كتب لنا الفلاح في ذلك ، فلن نكون قد اتينا الا عملا فظا . فمن اعتاد طوال عشرات السنين على تعاطي المنومات لن يذوق طعما للنوم اذا منعت عنه دفعة واحدة . ومفعول العزاء والسلوان الذي يقدمه الدين للانسان يمكن المقايسة بينه وبين مفعول المنومات: وما يجري الان في اميركا أسطع مثال على ذلك . فهم يريدون هناك ان يحرموا الناس — تحت تأثير سيطرة النساء بالطبع — من كل منبه ومن كل شراب مسكر ، ويعلفونهم بالمقابل ورعا وتقوى. وهذه في الحق تجربة اخرى لا يمكن ان تكون نتيجتها موضع شبهة .

وعليه ، انني اخالفك حين تتابع استدلالاتك فتقول ان الانسان لا يسعه البتة ان يستغني عن العزاء الذي يقدمه له الوهم الديني، وانه لولا هذا الوهم لما تحمل وطأة الحياة وقسوة الواقع . اجل ، هذا صحيح بالنسبة الى الانسان الذي قطرتَ له منذ طفولته السم الحلو — او المر . لكن أيصح ذلك بالنسبة الى الانسان الآخر، الانسان المُنشأ تنشئة رزينة رصينة ؟ ولعل من لا يشكو من اي

عصاب البتة لا يحتاج الى الثمل للتلطيف من وطأته . ولا يخالجنا ريب البتة في ان الانسان سيجد نفسه يومئذ في موقف صعب؛ اذ سيكون مرغما على مجاهرة نفسه بكل عسره وضائقته وصغاره في جملة الكون ؛ كما لن يعود هو مركز الخلق ومحوره ، وموضوع الطاف عناية إلهية كريمة . سوف يجد نفسه في الوضع الذي يجد فيه الطفل.نفسه اذا غادر البيت الابوي حيث كان يطيب له العيش ويلقى الدفء. لكن أليس طور الطفولة مقيضا له ان ينقضي ويزول ؟ فالانسان لا يمكن له ان يظل ابد الدهر طفلا ، ولا محيص له في نهاية الامر عن المغامرة والمخاطرة بنفسه في الكون المعادي.
وفي مقدورنا ان نسمي ذلك «التربية برسم الواقع» . فهل بي من حاجة الى القول ان مرامي الوحيد من كتابة هذه الدراسة لفت الانتباه الى ضرورة تفرض نفسها، ضرورة تحقيق ذلك التقدم ؟.

انت تخشى في أرجح الظن ألا يتحمل الانسان هذا الامتحان القاسي ؟ لكن لنتعلق بحبال الامل ، بالرغم من كل شيء . فانه ليس بالمكسب القليل اصلا ان يعلم الانسان انه ليس له من قوى يعتمد عليها غير قواه الذاتية . فهو سيتعلم في مثل هذه الحال كيف يستخدمها على الوجه المرام . ثم ان الانسان ليس بالكائن الذي لا حول له ولا طاقة ؛ فمنذ عهد الطوفان علّمه علمه الشيء الكثير ، وسوف يزيد ايضا من قوته وقدرته . اما فيما يتعلق بالضرورات الكبرى التي تنطوي عليها المقادير ، وهي ضرورات لا علاج لها ولا دواء، فسيتعلم الانسان كيف يتحملها بتسليم وانقياد. وما همه وهم امتلاك اراض شاسعة على القمر ، وهي اراض لم ير احد لها حتى الان ريعا او غلة ؟ ولئن كتب عليه أن يكون زرّاعا بسيطا في هذه الدنيا ، فهو سيعرف كيف يزرع قطعة ارضه الصغيرة على نحو يكفل له القوت والغذاء . ولا شك في ان الانسان سيتوصل ، يوم يقطع رجاءه من عالم الغيب او يوم يركز كل طاقاته المحررة على الحياة الارضية ، الى ان يجعل الحياة قابلة

للاحتمال من قبل الجميع ، ولن تسحق الحضارة بعدئذ احدا . يومئذ سيكون في وسعه ان يردد ، بلا اسف ، مع واحد من زملائنا في الارتياب وقلة التصديق :

انا تاركون السماء
للملائكة والعصافير .

(هايني ، «ألمانيا» ، الفصل الاول)

- ١٠ -

«ألا كم يبدو ذلك رائعا ! انسانية أقلعت عن كل وهم وصارت قادرة على ان تحقق لنفسها على الارض حياة تطاق وتحتمل ! بيد انه لا يسعني ، من جهتي ، ان أشاطرك آمالك . لا لانني ذلك الرجعي العتيد كما قد تتصورني ، وانما لان لدي حسا سليما . ويخيل الي هنا اننا عكسنا أدوارنا : فأنت الان الحالم الذي يحلق مع أوهامه ، وانا الذي يمثل متطلبات العقل والحق في الشك والارتياب . ويخيل الي ايضا ان ما تعرضه مبني على أخطاء من حقي ان اطلق عليها ، حاذيا حذوك ، اسم أوهام : اذ ان اثر رغائبك الذاتية بادٍ فيها ومفضوح . انت تعلل نفسك بالامل بأن الاجيال الآتية ، التي لن تكون قد عانت في طفولتها من تأثير المذاهب الدينية ، ستصل بسهولة ويسر الى أولوية العقل المرامة على الحياة الغريزية . وهذا قطعا وهم ؛ ففرص الطبيعة البشرية في ان تتبدل وتتغير ضئيلة للغاية بصدد هذه النقطة الحاسمة . واذا لم يجانبني الصواب – والحق ان معرفتنا بالحضارات الاخرى واهية – فانه لا تزال هناك الى اليوم شعوب لا تنمو وتترعرع تحت ضغط نظام ديني ، وهي لا تقترب مع ذلك اكثر من

غيرها من الشعوب من المثل الاعلى الذي تضعه نصب عينيك . ومن يرغب في ان يطرد الدين من حظيرة حضارتنا الاوروبية ، فلن يستطيع وصولا الى مبتغاه الا بمساعدة نظام مذهبي آخر ، وسوف يتلبس هذا النظام من البداية جميع سمات الدين السيكولوجية : القداسة ، الصرامة ، عدم التسامح وحظر إعمال الفكر ، ذودا منه عن حياضه . وليس لك غنى عن شيء من هذا القبيل حتى تتمكن من مواجهة مقتضيات التربية . والحال انك لا تستطيع ان تتخلى عن التربية . فالطريق الذي يتوجب على الرضيع ان يقطعه الى ان يصير متحضرا طريق طويل ؛ ولا ريب في ان العديد من الاحداث سيضيعون فيه ويتيهون ولن يتوصلوا الى اداء واجباتهم الحيوية في الوقت المطلوب ، اذا تركوا وشأنهم ليتطوروا عفويا وتلقائيا بلا دليل او مرشد . والمذاهب التي قد تستخدم في تربيتهم لا مفر من ان تحد فكرهم حين يدركون سن النضج ، مثلها في ذلك مثل الدين الذي تنحي عليه باللائمة . الا تلاحظ ان العيب الوراثي العضال في حضارتنا ، كما في كل ثقافة انسانية ، يتمثل في ما يُفرض على الطفل ، بالرغم من وهن فكره وسيطرة غرائزه عليه ، من اتخاذ لقرارات لا يستطيع سوى العقل الناضج للراشد ان يبررها ؟ على ان الحضارة لا تستطيع مع ذلك ان تسلك غير هذا المسلك ، وهذا بحكم ان تطور البشرية الطويل العريق لا بد ان يُضغط ، بالنسبة الى كل فرد ، في عدد سنوات الطفولة المحدود ، علاوة على ان الطفل لا يمكن ان يقاد الى انجاز المهمة المعينة له الا عن طريق تأثيرات عاطفية . تلك هي الآفاق التي تنفتح أمام ما تقول به من **أولوية العقل** .

«لا تستغرب اذن كوني من انصار الابقاء على التعليم الديني كأساس للتربية ولحياة البشر المشتركة . فالمشكلة هنا من طبيعة عملية وليست مسألة تماسك منطق . فما دمنا لا نستطيع، لصالح صيانة حضارتنا بالذات ، ان ننتظر كي نؤثر على الفرد ان يغدو ناضجا ومؤهلا للثقافة – وهناك افراد كثيرون لن يقيض لهم هذا

النضج ابدا – وما دمنا مكرهين على ان نفرض على الطفل الذي ينمو ويكبر نظاما ما من الانظمة المذهبية ، نظاما سيظل فعالا فيه ومؤثرا عليه بصفة بديهيات لا تقبل نقدا ، فلا غرو ان يبدو لي النظام الديني اقدر الانظمة اطلاقا على اداء تلك الوظيفة ، وعلى وجه التحديد بالطبع بحكم قوته المعزية والمحققة للرغائب ، هذه القوة التي زعمت انك قد تعرفت فيها **الوهم** . وإزاء الصعوبات التي تعترض سبيل معرفة اي جزء من الواقع ، وحيال الشك في امكانية اي معرفة ، كائنة ما كانت ، يخلق بنا الا يغيب عن انظارنا ان حاجات البشر تشكل هي نفسها ، بعد كل شيء ، جزءا من الواقع ، بل جزءا بالغ الاهمية يمت بأقرب الصلات الينا وله عظيم الاثر فينا .

«ثم انني اكتشف مزية اخرى للمذهب الديني في واحدة من سماته ، تغيظك وتمجها اكثر من غيرها . فالمذهب الديني قابل لتطهير ولتصعيد تفاكريين ، يستطيع بفضلهما ان ينسلخ على وجه التقريب عن كل ما كان يحمل فيه علامة نمط التفكير البدائي والطفلي . وما يتبقى فيه في هذه الحال يكون عبارة عن ذخيرة من الافكار التي ما عادت تتنافى والعلم ، والتي لا يملك العلم ان يدحضها .

«ان هذه التحولات في المذهب الديني ، التي ادنتها بوصفها أنصاف حلول وتسويات ، تتيح امكانية تلافي الانشقاق بين الجماهير الأمية وبين الفلاسفة والمفكرين . فهي تنطوي على عنصر مشترك بين الطرفين ، عنصر ذي اهمية قصوى في صيانة الحضارة والحفاظ عليها . ومن ثم لا يعود مبرر للخوف من ان يعلم ابن الشعب ان **الايمان بالله قد تلاشى** في اوساط الطبقات الاجتماعية العليا . ويخيل اليّ انني اوضحت بذلك ان جهودك لا تعدو كونها محاولة لاستبدال وهم ، دلل على نجعه وفاعليته وله قيمة عاطفية اكيدة ، بوهم آخر لم يدلل بعد على ما دلل عليه سابقه ولا يمتلك قيمته» .

– لست منيعا على نقدك . واني لاعلم مقدار صعوبة الافلات من طوق الاوهام . ولعل الآمال ، التي اقررت بأنني عللت بها نفسي ، هي ذاتها من طبيعة وهمية . بيد انني اقيم هنا تمييزا: فأوهامي – فضلا عن ان ما من قصاص يتوعد من لا يتبناها – ليست ، كالاوهام الدينية ، مستحيلة التصحيح او التقويم ؛ فهي بريئة من كل سمة هذيانية . واذا ما اثبتت التجربة – ليس لي وانما لآخرين من بعدي قد يفكرون مثلي – اننا قد اخطأنا ، فاننا سنتخلى عندئذ عن آمالنا. لا تحمّل اذن محاولتي اكثر مما تحتمل: عالم نفس ، لا يغر نفسه بصدد صعوبات التكيف مع هذه الدنيا الدنية ، يبذل جهده ليصدر على تطور البشرية حكما على ضوء ما امكن له ان يكشف النقاب عنه خلال دراسته للمساعي النفسية التي يقوم بها الفرد اثناء تطوره من الطفولة الى سن الرشد . عالم نفس انفرضت عليه فكرة تنص على ان الدين قابل للتشبيه بعصاب طفلي ، ولديه من التفاؤل القدر الكافي لكي يؤمن بأن البشرية ستتغلب على هذه المرحلة العصابية ، تماما كما يشفى العديد من الاطفال من عصاب مماثل اثناء نموهم . ولعل هذه المعارف ، المكتسبة بفضل علم النفس الفردي ، ناقصة وغير كافية ، ولعل نقلها لتطبيقها على الجنس البشري امر ليس له ما يبرره ، ولعل التفاؤل هنا لا يستند الى اساس متين : انني أسلم لك بأن ذلك كله غير اكيد . لكن ليس في وسع المرء في كثير من الاحيان ان يمسك نفسه عن المجاهرة بما يفكر به في طويته ، ومن الممكن في هذه الحال ان نعذره على ذلك بألا نحمّله فوق ما يحتمل .

ثمة نقطتان اخريان تستأهلان ان اتوقف عندهما . فضعف موقفي ، اولا ، لا يعني البتة قوة موقفك . ففي رايي انك تدافع عن قضية خاسرة . فمهما قلنا ورددنا القول بأن العقل الانساني لا حول له ولا قوة في مواجهة غرائز البشر ، ومهما حالفنا الصواب في ذلك ، فان ثمة شيئا خاصا يتسم به هذا الضعف : فمهما يكن صوت العقل خافتا فانه لا يتوقف ان لم يجد من يسمعه . ومهما

يطل صدنا ويتكرر ، فلا بد من ان نسمعه في النهاية . وان هذه لواحدة من النقاط النادرة التي يمكن لنا ان نتفاءل بصددها فيما يتعلق بمستقبل البشرية ، ولكنها ليست بالنقطة الواهية الاهمية.

انطلاقا من هذه النقطة يمكننا ان نمني النفس بمزيد من الامل والرجاء . فمما لا شك فيه ان الزمن الذي ستقوم فيه اولوية العقل لا يزال نائيا عنا غاية النأي ، لكن مما لا شك فيه ايضا ان المسافة التي تفصلنا عنه ليست بلامتناهية . ولما كانت اولوية العقل ستنشد في أرجح الظن نفس الاهداف التي يفترض في إلهكم ان يبلغكم اياها : الاخوة الانسانية وتناقص الالم ، فان من حقنا ان نقول ان الخصومة بيننا مؤقتة ليس الا ، وأبعد ما تكون عن استحالة التذليل والتسوية . بيد اننا سننشدها ضمن الحدود البشرية وبقدر ما سيسمح بذلك الواقع الخارجي . وعليه ، اننا نأمل الشيء نفسه ، لكنكم أشد نفاد صبر ، واكثر تطلبا وانانية ـ لم لا نقول ذلك ؟ ـ مني ومن أشباهي . انتم تريدون ان يبدأ الهناء بعد الموت مباشرة ، وتطلبون أليه ان يحقق المستحيل ، ولا تريدون ان تتخلوا عن مزاعم الفرد وادعاءاته . اما إلهنا نحن ، العقل ، فلن يحقق من هذه الرغائب الا بقدر ما ستسمح به الطبيعة الخارجية ، وسيتم ذلك رويدا رويدا ، وفي مستقبل غير منظور ، وبالنسبة الى ابناء هم غير ابنائنا . اما نحن الذين نشكو مر الشكوى من الحياة فلا يعدنا بأي تعويض . ولن يكون هناك مناص من التخلي ، على الطريق التي تفضي الى ذلك الهدف القصي ، عن مذاهبكم الدينية ، ولن يكون من المهم عندئذ ان تفشل المحاولات الاولى او الا تكتب الحياة للتشكيلات البديلة الاولى . وانتم تعلمون السبب : فما من شيء يستطيع على المدى الطويل ان يقاوم العقل والتجربة ، وتناقض الدين مع كليهما امر لا يحتاج الى بيان . وليس في مستطاع حتى الافكار الدينية المطهرة والمصفاة ان تفلت من هذا المصير ، ما دامت تسعى الى انقاذ شيء ما من سمة الدين العزائية . ومؤكد انكم لو اقتصرتم على

تأكيد وجود **كائن اعلى** ، لا سبيل الى تحديد صفاته ولا الى معرفة مقاصده ، لوضعتم انفسكم خارج منال اعتراضات العلم ، لكنكم لن تعودوا في هذه الحال موضع اهتمام من قبل البشر .

ثانيا ، ارجوك ان تلاحظ الفارق بين موقفك وموقفي من الوهم . فأنت لا معدى لك عن الدفاع بكل ما اوتيت من قوة عن الوهم الديني ، لان هذا الوهم اذا ما فقد حظوته ـ وهو مهدد فعلا بذلك بما فيه الكفاية ـ فان عالمك كله سينهار ، ولن يبقى أمامك الا ان تيأس من كل شيء ، من الحضارة ومن مستقبل البشرية معا . اما انا ، اما نحن فأحرار من هذا الاستعباد . فمما اننا على استعداد للتخلي عن شطر لا بأس به من رغائبنا الطفلية ، ففي وسعنا ان نتحمل ان تنكشف بعض أحلامنا على انها أوهام .

لعل التربية المنعتقة من نير المذاهب الدينية لن تغير كبير شيء في الماهية السيكولوجية للانسان ، ولعل إلهنا العقل ليس خارق القوة ، ولعله لن يستطيع ان يفي الا بالنزر اليسير مما وعد به أسلافه والمتقدمون عليه . واذا توجب علينا ان نقر ذات يوم بذلك ، فسنقر به بكل استسلام وانقياد . بيد اننا لن نقلع بسبب ذلك عن كل اهتمام بأمور الحياة والكون ، لان لدينا نقطة ارتكاز قوية ليس لديكم نظيرها . فنحن نؤمن بأنه في مقدور العمل العلمي ان يعلمنا شيئا ما عن واقع الكون ، وبأننا سنزيد بذلك من قوتنا وسنتمكن بالتالي من تنظيم حياتنا تنظيما افضل . واذا كان هذا الايمان وهما من الاوهام ، فان وضعنا لا يكون مختلفا في هذه الحال عن وضعكم ، لكن العلم قدم لنا البرهان ، بالنجاحات الكثيرة والهامة التي حققها ، على انه ليس وهما .

ان للعلم أعداء سافرين كثرا ، ولكن عدد اعدائه المتخفين اكبر بين أولئك الذين لا يستطيعون ان يغفروا له تجريده الايمان الديني من قوته وتهديده هذا الايمان بالدمار الشامل . ومما يأخذونه عليه انه لم يعلمنا الا النزر اليسير اليسير ، وانه ترك الظلام يغلف عددا اكبر بما لا يقاس من الاشياء . لكنهم ينسون ، وهم يتكلمون بمثل

هذا الكلام ، صغر سن العلم وحداثته ، وصعوبة حبوه وخطواته الاولى ، وقصر الزمن اللامتناهي المتصرم منذ ان بلغ العقل الانساني القوة الكافية لمواجهة المهام التي يطرحها عليه . الا نرتكب جميعنا، مهما كنا ، خطأ بناء أحكامنا على اساس فترات زمنية بالغة القصر؟ حري بنا أن نقتدي هنا بمثال علماء الجيولوجيا. فكثيرون يشتكون من لايقينية العلم ، ويتهمونه بأنه يستن اليوم قانونا يتبين الجيل التالي خطأه ، فيستبدله بقانون جديد لن يكون بدوره أطول عمرا من سابقه . لكن هذه الاتهامات ظالمة ، وخاطئة جزئيا . فتحول الآراء العلمية تطور ، تقدم ، وليس هدما . فالقانون الذي يتبدى للوهلة الاولى وكأنه صحيحمطلق الصحة لا يلبث ان ينكشف بصفته حالة خاصة من قانونية اكثر شمولا ، او يتضح للعيان ان ميدانه محدود بقانون آخر لن يقيض له ان يكتشف الا لاحقا . هكذا يتم الإستغناء عن مقاربة فجة للحقيقة بمقاربة اخرى أدقواكثر انسجاما مع الواقع ، مقاربة تنتظر الاتقان والإحكام بدورها . ونحن لم نتخط بعد ، في العديد من الميادين ، مرحلة البحث والتنقيب ، وهي مرحلة يتم فيها اختبار فرضيات شتى لا نلبث ان نجد انفسنا مكرهين على نبذها واطراحها لعدم مطابقتها . لكننا نملك ، في ميادين اخرى ، نواة من المعارف الاكيدة وشبه النهائية . وقد حاول بعضهم اخيرا ان يفقد العلم اعتباره من جذوره بزعمهم انه لا يستطيع ، بالنظر الى ارتباطه بشروط تعضيتنا بالذات ، ان يعطينا سوى نتائج ذاتية ، في حين ان الطبيعة الحقيقة للاشياء التي في خارجنا تظل عصية المنال عليه . لكن من يزعم مثل هذا الزعم يتجاهل بعض عوامل لها اهميتها والحاسمة عند محاولة فهم العمل العلمي . فتعضيتنا اولا ، اي جهازنا النفسي ، قد تطورت بالتحديد من خلال سعيها الى استكشاف العالم الخارجي ، ثم كان عليها بعد ذلك ان تحقق في بنيتها بالذات درجة معينة من التكيف والتلاؤم . ثانيا ، ان جهازنا النفسي يؤلف هو ذاته جزءا مكونا من ذلك الكون الذي علينا ان نستكشفه والذي يصلح فعلا

لبحثنا وتنقيبنا فيه . ثالثا ، ان مهمة العلم محددة تمام التحديد اذا قصرناها على افهامنا الكيفية التي ينبغي أن يتجلى بها العالم لنا بحكم الطابع الخاص لتعضيتنا . رابعا ، ان النتائج النهائية للعلم، بحكم الطريقة التي يتم بها الوصول اليها ، ليست مشروطة بتعضيتنا وحدها ، وأنما ايضا بما يؤثر على هذه التعضية . وأخيرا ، ان مشكلة طبيعة الكون ، اذا ما نظرنا الى هذه الطبيعة بمعزل عن جهاز ادراكنا النفسي ، هي تجريد فارغ ، لا ينطوي على اي فائدة عملية .

كلا ، ليس علمنا وهما . وانما الوهم ان نتصور انهفي وسعنا ان نجد لدى غيره ما لا يستطيع هو ان يقدمه لنا .